أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

مكية وهي مع البسملة مائة آية وستة ركوعات *

ورد في تفسير البحر المحيط أن "هذه السورة مكية بلا خلاف".

ومن غرائب القدر أن الله تعالى قد جعل العلماء يُجمِعون على اعتبار هذه السورة مكية بلا خلاف. فلقد ورد فيها من القضايا والمسائل ما لا تنكشف عظمته كما ينبغي إلا إذا كانت السورة مكية.

علاقة سورة الحجر بسورة إبراهيم تكمن في أن السورة السابقة قد نوّهت بأن الأنبياء السابقين لم يغلبوا بالأسباب المادية وإنما ببركة الوحي الذي نزل عليهم من الله تعالى، وبأن أمر محمد ﷺ أيضًا سيتمّ بهذه الطريقة. وتتحدث هذه السورة عن القوة الكامنة في كلام الله تعالى حيث يخبرنا ﷻ أن الوحي قوة خارقة بحيث لا شيءَ يستطيع الوقوف في وجهها. إن الافتراء على الله ليس بالأمر الهيّن، ومن المستحيل أن ينجو المفتري من عقابه ﷻ. فثبت أن القرآن حق، وأنه قد نزل مصحوبًا بالبينات الدالة على صدقه.

لقد أكد الله تعالى في هذه السورة أن هذا الكلام عظيم لا مثيل لـــه، حتى إن المعارضين كثيرًا ما يتمنون وسيتمنون بكل حسرة عند رؤية محاسنه: ليت لديهم

* بالإضـــافة إلى تقســـيم القرآن الكريم إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضًا إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. (المترجم)

مثل هذا الكلام العظيم! ولكنهم لا يستطيعون قبوله بسبب مصالحهم الشخصية، ولا يدركون أن مثل هذا التهاون يحرم صاحبَه من قبول الحق إلى الأبد ويعرّضه للعذاب. أما وقد أنزل الله هذا الوحي فلا يمكن أن يمّحي ويندثر، بل لا بد أن يبقى ويدوم، لأن الله تعالى بنفسه تولّى حفظه وحمايته. فمن لم يقبله فلن يضر إلا نفسه.

كان الناس ولا يزالون يسخرون من أنبيائهم بسبب ما نزل عليهم من الوحي، ولكنهم لا يفكرون أن الافتراء على الله ليس بالأمر الهيِّن، لأن الله تعالى هو الذي يتولى الدفاع عن ذاته، فلا يدَع أحدًا يفتري عليه، وهو الذي يخص الوحيَ الحق بمزايا معينة، ويهيئ الأسباب لقبوله وانتشاره، ويرفع الذين يقبلونه ويصدقونه من الحالة الدنيا إلى أسمى درجات الكمال.

وكما أن الوحي الذي نزل على الأنبياء السابقين كان بمثابة الكنـــز الذي انتصروا به على العالم ..كذلك سيحدث الآن أيضًا. فإذا كان المعارضون يستهينون بهذه الكنوز فدَعْهم يا محمد وشأنَهم، فسوف يعاقَبون على ذلك، فلا تتوانَ في توزيع تلك الكنوز على المؤمنين، ولا تَمَلَّ من إنذار من يرفضها، وارفعْ أكفّ الضراعة والابتهال إلى ربك دائما، فهذا هو الأمر الذي سيمهّد لتبليغ رسالة الله ونشرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

آيات: مفردها آية وهي: العلامةُ والدليل؛ ويقال لكل كلامٍ من القرآن منفصلٍ بفصل لفظي آية (تاج العروس).

أرى أن الجمل القرآنية سُمّيت آيات للحكمة نفسها، ليدرك الناس أن مضامين القرآن مرتبة ترتيبًا كاملاً، وكل جملة منه دليل على صدق ما ورد في الجملة السابقة من معانٍ، وأنه بدون مراعاة هذا الترتيب لن يدرك أحد المعارف القرآنية بشكل جيد. وقد سُمّيت بالآيات كذلك لأن كل جملة قرآنية آيةٌ من آيات الله تعالى. يزعم النصارى أن القرآن لا يدّعي أنه معجزة، مع أن القرآن قد سمّى كل جملة منه آيةً أي معجزة، مشيرًا إلى أنه يحتوي على معجزات كثيرة، بل إنه بنفسه معجزة عظمى.

الكتاب: مصدرُ كتَب يكتب. يقال: كتَب الكتيبةَ: جمَعها. وكتب السقاءَ: خرَزه (تاج العروس).. أي سدّ فمَه بخيطَين من جلد. وبهذا المعنى يسمّى الكتاب كتابًا لأنه تُجمع فيه مسائل مختلفة، ولأنه يُصنع بتجميع الأوراق بخيط وغيره. والكتابُ: "ما يُكتب فيه من مجموعة أوراق فارغة؛ ما كُتب؛ الفرضُ؛ الحُكمُ؛ القدرُ؛ والكتاب الرسالةُ المكتوبة" (أقرب الموارد).

مبين: أبان الشيءُ: اتضح، وأبان فلان الشيءَ: أوضحه (أقرب الموارد)

لقد وردت كلمة (مبين) في سورة يوسف بمعنى الموضِّح، وأما هنا فبمعنى الواضح. وقد جاءت كلمة (قرآنٍ) هنا بالتنوين تفخيمًا لشأنه.

التفسير: لقد تحدث المفسرون فيما إذا كان هناك فرق بين (الكتاب) و(قرآن مبين)، لأن (و) العاطفة ترد عمومًا لبيان المغايرة بين شيئين.

الحق أنهم وقعوا في هذا النقاش عبثًا حيث أخذوا (الكتاب) بمعنى مجموعة الأوراق المكتوبة، مع أن الله تعالى قد قصد بذكر كلمة (الكتاب) إزاء (قرآن) الإشارةَ إلى معنى خاص وهو أنه ﷻ سوف يقوم بحماية القرآن الكريم كتابةً وتحفيظًا.. أي أنه سوف يُكتَب ويدوَّن، وسوف يُقرَأ بكثرة. وكأنه تعالى قد أكد في مستهلّ السورة نفسَ النبأ الذي ذكره بعد قليل في قوله ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾، حيث جاء بكلمتي (الكتاب) و(قرآن) كَصفتَين للقرآن لا كَاسْمَين، مثل كلمة "محمد" التي تُستخدم عَلَمًا في بعض الأحيان، وصفةً في أحيان أخرى. فنبّأ بـ (الكتاب) بأنه سوف يتم تدوينه وكتابته، وأخبر بـ (قرآن) أنه سوف يُقرَأ بكثرة.

والواقع أنه ليس هناك أي كتاب سماوي يتسم بهاتين الصفتين معًا غير القرآن الكريم. لا شك أن التوراة والإنجيل يُقرَءان بكثرة، ولكن لا أحد من الناس يحفظهما عن ظهر قلب. وأما "الفيدا"* كتابُ الهندوس فإن لغته غير مفهومة إلا لقلة قليلة جدًّا، دَعك أن يحفظه أحد عن ظهر قلب. إن عدد الهندوس في الهند يبلغ في هذه الأيام حوالي ٢٥٠ مليون شخص، وقد بَلَغَنا أنه يوجد بينهم أربعة أشخاص فقط قادرين على ترجمة "الفيدا" وتوضيح غموضه. ونفس الحال بالنسبة للزَّنْدأَفسْتا**. إن القرآن الكريم هو الوحي الوحيد الذي يُقرأ في صورة كتاب، ويُحفظ عن ظهر قلب أيضًا، وهناك الملايين الذين ينتفعون منه بكلا الطريقين.

---

* الفيدا كتاب مقدس للهندوس (المترجم).

** الزنذأفستا كتاب مقدس للزرادشيين (المترجم).

هناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر، وهي أن القرآن قد وُصف بهاتين الصفتين (الكتاب والقرآن) معًا في آيتين: في الآية المذكورة هنا، وفي الآية الثانية من سورة النمل، ولكن هناك فرق واضح، وهو أنه في هذه الآية قدِّمت كلمة (الكتاب) على كلمة (القرآن)، بينما حصل العكس في سورة النمل.

أرى أن سبب هذا الفرق هو التأكيد على أمر معين في كلّ من الموضعين. فكان الهدف في هذه السورة إبرازَ كون هذا الوحي (قرآنًا) أكثر من كونه (كتابًا)، فلذلك قدّم صفة (الكتاب) على صفة (القرآن)، لأنهم أحيانًا يذكرون الأدنى قبل الأعلى بيانًا للدرجة. أما في سورة النمل فكان القصد هنالك إبراز صفة الكتابة لذلك أخَّر هناك كلمة (الكتاب) وقدَّم كلمة (القرآن).

وثمة أمر آخر يجب التنبه إليه وهو أن الله تعالى لم يقل هنا "الكتاب المبين"، بل قال ﴿قرآن مبين﴾، بينما ذكر العكسَ في سورة النمل إذ قال ﴿تلك آيات القرآنِ وكتابٍ مبينٍ﴾.

وقد يظن البعضُ ممن لا حظَّ له من أسرار القرآن أن هذا الأسلوب راجع للسجع والقافية. وهذا ظن باطل، ذلك أنه إذا كان الله تعالى قد استخدم هناك كلمة (قرآن) للسجع فلماذا قدّمها على كلمة (الكتاب) خلافًا لما فعل هنا في سورة الحجر؟ فهذا يدل أن هناك حكمة في تغيير الأسلوب والكلمات.

وليكن معلومًا أيضًا أن كلمة (مبين) لم ترد في هذين المكانين فقط، بل إنها قد وردت في عدة مواضع أخرى وعقب كلمات أخرى أيضًا، وإليكم بيان ذلك:

جاءت كلمة "مبين" صفةً للقرآن في موضعين هما: هذه الآية من سورة الحجر والآية ٧٠ من سورة ياسين.

ووردت صفةً للكتاب في ١٢ موضعًا وهي: المائدة: ١٦، الأنعام: ٦٠، يونس: ٦٢، هود: ٧، يوسف: ٢، الشعراء: ٣، النمل: ٢ و٧٦، القصص:٣، سبأ: ٤، الزخرف: ٣ والدخان: ٣. مما يعني أنه لا دخل للسجع هنا، بل إن الكلمات قد تغيرت لحكمة ما.

وقد اتضح مما سبق أن هناك مكانين فقط وردت فيهما كلمتا (الكتاب، والقرآن) معًا مقرونتين بصفة (مبين). فلا شك أن هذين الموضعين يتطلبان منا التدبر حتى نفهم الحكمةَ ونعلم سبب ورود كلمة (مبين) صفةً للكتاب في موضع وللقرآن في موضع آخر؟

علمًا أن سورتي الحجر والنمل تختلفان في الموضوع، فالأولى منهما تذكر الأحداث التي وقعت للأنبياء الذين لم يكن في زمنهم للكتابة رواج، بل كان الناس يعتمدون على الذاكرة للثقافة والمعرفة، مثل آدم وإبراهيم ولوط وأصحاب الأيكة وقوم صالح عليهم السلام. لقد بُعث آدم في الفترة الأولى حينما لم يكن للناس دراية بفن الكتابة الذي لم يكن قد اختُرع بعد. وكان إبراهيم ولوط من القبائل العربية وكان مولدهما العراق، ولم يكن للكتابة عندهم رواج أيضًا. وأصحاب الأيكة كانوا قبيلة عربية كما كان قوم صالح، ولم يكن لديهم جميعا اهتمام كبير بالكتابة. فثبت من هذه الأمثلة أن سورة الحجر تخاطب عمومًا أولئك الأقوام الذين لم يهتموا بفن الكتابة كثيرا، والذين كان من المقدر أن ينتفعوا من معارف القرآن بالذاكرة أكثر من الكتابة؛ لذلك قال الله هنا ﴿قرآن مبين﴾ ليخبر أن هذا الوحي سينفع هؤلاء بصفته (قرآنًا) أي ما يُقرأ كثيرًا؛ إلا أنه تعالى أضاف إلى ذلك كلمة (الكتاب) أيضًا تأكيدا لحمايته لهذا الوحي.

وأما في سورة النمل فقال ﴿كتاب مبين﴾، لأنه قد ركّز فيها على ذكر أحداث موسى وداود عليهما السلام وهما من بني إسرائيل الذين كان اعتمادهم على الكتابة أكثَرَ منه على الذاكرة (The Illustrated Bible Dictionary, Part ٣ Under; 'Writing' P. ١٦٥٧-١٦٥٨)، وكان من المقدر أن يستفيد أتباع هؤلاء الرسل مما نزل على محمد ﷺ بصفته (كتابًا) أكثر منه (قرآنًا)، ولذلك جاء التأكيد في سورة النمل على كون هذا الوحي (كتابًا) أكثر منه (قرآنًا)، فقدَّم كلمة الكتاب مضيفًا إليه صفة (مبين) فقال ﴿كتاب مبين﴾.

خلاصة القول إن هذا الوحي مبين سواء من ناحية كونه (قرآنًا) أو (كتابًا)، وبما أنه نزل للعالم كله فسوف تنتفع منه الأمم كلها، سواء تلك التي تعتمد في علومها على القراءة والحفظ عن ظهر قلب أو التي تعتمد على الكتابة.

وكما سبق أن بيّنتُ فإن كلمة ﴿مبين﴾ قد وردت في المصحف الشريف صفةً للقرآن مرتين فقط، بينما جاءت صفةً للكتاب ١٢ مرة، مما يشير إلى أن هذا الوحي سيكون أكثرَ تأثيرًا بصفته (كتابًا)، بمعنى أن معظم الناس سوف ينتفعون منه لأنهم سيجدونه مكتوبا، ولذلك فإنه سوف ينتشر بكثرة بين الأمم التي تحفظ العلوم والمعارف عن طريق الكتابة.

كما أنني أرى في تكرار كلمة ﴿كتاب مبين﴾ بهذه الكثرة إشارةً ربانية للمسلمين بأن المنتفعين بالكتابة يكونون أكثرَ عددًا من المنتفعين بالذاكرة فقط، فعليهم أن يهتموا بنشر التعليم فيما بينهم حتى لا يُحرم أهل الإسلام مما في القرآن الكريم من منافع وبركات.

لما كانت هذه السورة تتناول موضوع حفظ تعاليم الإسلام فقد وصف الله هذا الوحي هنا بصفتي (الكتاب) و(القرآن) تأكيدًا لحمايته. ذلك أنه من المستحيل حماية أي تعليم حماية كاملة ما لم يتم ضبطه بالكتابة والحفظ معًا، إذ قد تخون الذاكرة وقد يسهو الكاتب، ولكنهما إذا اجتمعا أزال الواحد خطأ الآخر، فلا يبقى هناك احتمال للخطأ. ولقد تيسرت للقرآن الكريم الحماية بنوعيها، فإنه (كتاب)، إذ تم ضبطه أولا بأول بصورة كتابية في حياة النبي ﷺ، كما أنه (قرآن).. بمعنى أنه لم يزل ملايين الناس – منذ بداية نـــزوله إلى يومنا هذا – يحفظونه عن ظهر قلب ويقومون بتلاوته.

رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

ربما: أصله: (رُبَّ) و(ما). و(رُب) يشدَّد ويخفَّف. و(رُبَّ) حرفُ جرٍّ لا اسمٌ، خلافًا للكوفيين، ومعناها في المشهور التقليلُ لا التكثيرُ. وقال أبو عبد الله الرازي: هناك إجماع لدى العلماء على أنها موضوعة للتقليل. وهذا ما يراه الزمخشري أيضًا. ولكن يروى عن سيبويه والزجاج أنها للتكثير. وقال آخرون: إنها لا تفيد تقليلاً ولا تكثيرًا، بل هي حرفُ إثبات (لسان العرب، والبحر المحيط، والكشاف، والرازي،).

الواقع أن كلمة ﴿ربما﴾ تفيد هنا التكثير، لأن الذين قالوا بكونها للتقليل أيضًا قد أوّلوها هنا بمعنى التكثير. (انظر لسان العرب)

وهـــناك اخـــتلاف آخر بين النحويين حول كلمة (رُبَّ): أتفيد المستقبل أم الماضي؟ والأكثر يرون أنها لا تفيد إلا الماضي، ولذلك أوّل هؤلاء كلمة ﴿يودّ﴾ بمعنى (وَدَّ) لأن ما يخبر الله بوقوعه مستقبلاً فإنه سيتحقق حتمًا وكأنه حقيقة قد ثبت وقوعها في الماضي.

ولكن البحث يدل على أنها تفيد المستقبل أيضًا. قالت هند زوجة أبي سفيان:

يا رُبَّ قائلةٍ غدًا يا لهف أم معاويه

وقال سليم القشيري:

ومعتصمٍ بالجُبن مِن خشية الردى سيردى، وغازٍ مشفقٍ سيؤوبُ

(البحر المحيط)

مسلمين: أسلمَ الرجلُ: تديَّنَ بالإسلام. أسلمَ أمرَه إلى الله: سلّمَه.

التفسير: هناك اختلاف بين المفسرين حول زمن أُمنية الكفار هذه، فقال البعض إنهم يعبرون عن أمنيتهم هذه عند غلبة المسلمين، وقال الآخرون إن هذا

سيحدث يوم القيامة. بينما قال غيرهم بأنهم يودون ذلك لدى كل ازدهار يحققه المسلمون (فتح البيان).

وأرى أنه لا بأس بهذا المعنى، لأن الإنسان حين يعادي غيرَه دون مبرر- كما كان الكفار يفعلون بالنبي ﷺ - فإنه يتحسر كلما يحقق خصمه ازدهارًا، ويقول: لو لم أناصب هذا الشخص العداء لكان خيرا لي. لم يكن العرب يعادون النبي ﷺ إلا حسدًا فقط، ولكنه حينما حقق إنجازات غير عادية لم يعودوا يحسدونه وإنما بدأوا يقولون بكل حسرة: ليتنا لم نعارضه وكنا مسلمين. فمثلا حينما كانوا يُقتَلون في معركة بدر فلا بد أنهم كانوا يتمنون أن لو كانوا مسلمين. فلا غرو أن الكفار كانوا يقولون في أنفسهم بكل حسرة عند انتصارات المسلمين: يا ليتنا كنا مسلمين. لقد سجل القرآن الكريم قولاً صريحًا كهذا للمنافقين، ولا شك أن هذه كانت حالة الكفار أيضًا، فهذا أمر طبيعي لا يمكن إنكاره.

وأرى أن للآية معنى آخر أيضًا لم ينتبه إليه المفسرون لأنهم يهتمون عموما بمحاسن القرآن الظاهرة من فصاحة وبلاغة ومعجزات، وقلما يتحدثون عن محاسنه الباطنة من تعاليم سامية ومعارف عالية. إنني أرى أن أكبر دواعي نـــزول القرآن هو تعاليمه الكاملة والرائعة، وهي التي أُشير إليها في قوله تعالى ﴿تلك آيات الكتاب﴾، وهي التي كان الكفار يغبطون النبي ﷺ بسببها، بمعنى أنهم برؤية محاسن التعاليم الإسلامية كانوا يتمنون أن يكونوا مسلمين. لقد حصل هذا منهم مرارا في الماضي وسوف يتكرر في المستقبل أيضًا.

ورد في الحديث أن يهوديًّا قال لسيدنا عمر رضي الله عنه: آيةٌ في كتابكم تقرَأونها لو علينا معشرَ اليهود نزلتْ لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا! قال: أي آية؟ قال ﴿اليوم

أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينًا﴾. فقال لليهودي: كان لنا في ذلك اليوم عيدان: عيدُ يوم عرفة وعيدُ الجمعة.*

وفي رواية أخرى أن يهوديًّا قال: من المحيّر أن شرعكم لم يترك جانبًا من جوانب الحياة إلا وسلّط عليه الضوءَ. **

هذه بعض الأماني التي تولدت في قلوب الآلاف من معارضي الإسلام، ولكن لم يتفوه بها إلا القليلون. وقد أشار القرآن الكريم أيضًا إلى ذلك حيث لم يستخدم كلمة (يقولون) بل قال ﴿يودّ﴾، مما يعني أنهم يتمنون ذلك في قلوبهم، ولكن لا يتفوهون به.

وفي هذا العصر أيضًا نجد معارضي الإسلام يشيدون بالتعاليم الإسلامية في شتى القضايا كالطلاق والإرث والخمر. فعندما يفكر أحد الأوروبيين أنه يجب سن القوانين حول الطلاق كما هي عند المسلمين.. فإنه في الواقع يقول: ليتني كنت مسلما. وحينما يقول أحد الأمريكان في نفسه بأنه يجب الحظر على تعاطي الخمر.. فكأنه يصدق ما أعلنه القرآن في قوله ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾. قبل مدة قليلة تقدم هندوسي كان عضوًا في المجلس التشريعي الهندي بمسودة قانون عن زواج القاصرات، وقال في خطابه أمام المجلس بحسرة تعتصر القلب: ليس لدينا نحن الهندوس قانون عن الزواج كالذي سنّه الإسلام، وحمى به مجتمعه.

---

* ونصُّ الحديث هو: "قال: رجل من اليهود لعُمر: يا أمير المؤمنين، لو أن علينا نزلت هذه الآية: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينًا﴾ لاتخذنا ذلك اليوم عـــيدًا! فقال عمر: إني لأعلم أيَّ يوم نزلتْ هذه الآية. نزلتْ يومَ عرفة في يوم جمعة."(البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

** ونـــصُّ الحديـــث هو: "قد علَّمكم نبيُّكم كل شيء حتى الخِراءةَ" (الترمذي: الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة). والخراءة هو التبرز والقعود للحاجة.

وقد وردت في الآية أيضًا كلمة ﴿ربما﴾ التي تدل على التكرار، والمعنى أن المعارضين لن يهتموا بتصديق الإسلام كلية، وإنما يغبطونه فقط بسبب تعاليمه من حين لآخر.. ويودون لو أن هذا التعليم أو ذاك الحكم موجود في شرعهم.

والمسلم من يُسلِم أمره ونفسه لله كما ورد في القرآن ﴿أسلمتُ لرب العالمين﴾ (البقرة:١٣٢). وعلى ضوء هذا المعنى فقد يعني قوله تعالى ﴿لو كانوا مسلمين﴾ أن الكفار يرون فشل مكائدهم الدنيوية ضد النبي ﷺ الذي يحقق نجاحا تلو نجاح متوكلا على الله وحده.. مما يكسر كبرهم وغطرستهم لبعض الوقت.. فيتمنون بكل حسرة أن يا ليتنا كنا على صلة مع الله، وفوّضْنا أمرَنا إليه، حتى لا نلقى هذه الهزيمة والهوان.

والمسلم يعني أيضًا من يهيئ الأمن والسلام للآخرين. فالمراد من الآية أنهم عندما يرون تقدُّم المؤمنين يقولون في أنفسهم ليتنا لم نحاربهم بل عشنا مسالمين كي لا نرى هذا اليوم المشؤوم.

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الأمل: الرجاء. تأمّلتُ الشيءَ: نظرت إليه مستثبتًا له (الأقرب).

التفسير: تخبرنا هذه الآية أن المعارضين سوف يعترفون بفضل تعاليم الإسلام في شتى مجالات الحياة، ولكنهم لن يوفّقوا لاتخاذ الخطوة التالية، بل سيظلون محرومين من قبول الإسلام جراء مصالحهم المادية من مأكل ومشرب، وتجارة وحرفة، وأمانٍ عريضة. وهذا بالضبط ما يحدث اليوم أيضًا، حيث نجد أهل أوروبا يعترفونَ بفضل تعاليم الإسلام، ولكنهم غير مستعدين لاعتناقه بسبب مجتمعهم. وكأن الآية جاءت ردًّا على سؤال نشأ من الآية السابقة، وهو: ما دام هؤلاء يتمنون – من صميم قلوبهم – أن يكونوا مسلمين فلماذا لا يسلمون إذن؟

فقيل: إن عيشهم الهنيء وجشعهم المادي وأمانيهم العريضة هي التي تحول دون إسلامهم.

تعلِّمنا هذه الآية أنه لا بد لقبول الحق من البساطة في الأكل والشرب واجتناب حب الدنيا وطول الأمل. إن الذي يبحث عن الحقيقة لا مناص لـــه من تجنب هذه الأمور. أما الذي لا يتجنب هذه الثلاثة فإن بحثه عن الحقيقة عبث، وسيبقى محرومًا من قبول الحق رغم انكشافه عليه.

كما تشير الآية إلى أن الكفار يوسّعون للناس الموائد، ويجمعون الأموال والثروات، ويتخذون من المكائد ما يفوق التصور، ليبثّوا الرعب في قلوب القوم، ولكن محمدًا ﷺ لا يلجأ إلى مكائد كهذه، ومع ذلك سيكون الفوز حليفه، ولن يملك الكفار إلا أن يحترقوا حسرةً ويموتوا كمدًا برؤية رقيه العظيم ﷺ.

كما تشير الآية إلى أن رغبة الكفار في الإسلام عابرة مؤقتة، وأن رغبتهم الحقيقية هي أكل الطعام الشهي وجمع المال الطائل؛ والرغبة العابرة لا تنفع صاحبها. أما المؤمنون فرغبتهم في الإسلام رغبة دائمة، ورغبتهم في الأكل وجمع المال واتخاذ التدابير لذلك مؤقتة أي لسد الحاجة فقط؛ ولذلك فإنهم ينالون هدي الله تعالى، في حين يبقى الكفار محرومين منه.

وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤

شرح الكلمات:

قرية: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه الناس؛ وللناس جميعًا؛ ويُستعمل في كل واحد منهما؛ قال الله تعالى ﴿وَسۡئَلِ القرية﴾.. قال كثير من المفسرين: معناه أهل القرية؛ وقال بعضهم: بل القرية ههنا القوم أنفسهم. (المفردات)

والـــواو في ﴿ولها﴾ واو الحال، قال القاضي منذر: هذه الواو تفيد أن المذكور بعدهـــا في اللفـــظ هو مقدَّم في الزمن، ومنه قوله تعالى: ﴿إذا جاءوها وفُتحت أبوابها﴾. (راجِع البحر المحيط)

التفســـير: اعلم أن كلمة القرية هنا لا تعني معناها العام، وإنما المراد منها القوم الذين يُبعث إليهم نبي من الأنبياء. وهذا مصطلح قرآني حيث يطلق القرآن الكريم كلمة القرية على كل القوم الذين تكون رسالةُ نبي موجَّهةً إليهم. ذلك أن أول من يخاطبهم النبي هم أهل قريته أو بلدته، أما الذين سواهم فإنهم يندرجون بينهم تلقائيًّا.

كمـــا أن القرآن يسمّي قريةَ النبي أمَّ القرى، لأن الأم إذا ماتت مات أولادها لعدم توافر الغذاء. والقرية المشار إليها في قوله تعالى ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ هي تلك التي يُبعث فيها النبي، أما القرى الأخرى التي يكون النبي مرسلا إليها أيضًا فـــلم يذكـــرها القرآن لأنها تكون تابعة للقرية الأم. وإن قوله تعالى ﴿من أمةٍ﴾ الوارد في الآية التالية دليل آخر على صحة موقفي هذا.

يعترض البعض قائلين: لقد هلك أهل القرية الفلانية، ومات سكان البلدة كيت وكيت، فأَرُونا أيَّ نبي بُعث إليهم؟ والحق أن قولهم هذا باطل تمامًا بموجب هذه الآيـــة. حيث تخبرنا أنه حينما يُبعث نبي من الأنبياء في مكان ما فإن جميع قرى القـــوم الذين تكون رسالته موجّهة إليهم تصبح تابعة لقريته، وبالتالي يستحقون العذاب إذا رفضوه وإن لم تطأ قدما النبي تلك القرى. وإذا كان مبعوثًا إلى الدنيا كلها فأهلها جميعًا يستوجبون العذاب برفضهم له.

كما تنبهنا الآية أن حلول العذاب بقرية ما لا يعني بالضرورة ظهور نبي فيها، وإنما العذاب الذي يكون علامةً على ظهور نبي لا يحل إلا بالمنطقة الواسعة التي تكون رسالته موجهّة إلى أهلها. فإذا كان النبي مبعوثًا إلى قوم فالعذاب القومي يشكل دليلا على صدقه، وإذا كان مبعوثًا إلى العالم كله فالعذاب العالمي يكون

هو الدليل على صدق ذلك النبي. فمثلا لم يكن صدق أنبياء بني إسرائيل متوقفًا على عذاب ينـــزل بقرية معينة، وإنما كانت علامة صدقهم ذلك العذاب القومي الذي يحل بالأمة الإسرائيلية عمومًا. ولم تكن علامة صدق النبي الكريم ﷺ أن يحل العذاب بقوم معين، بل كانت علامة صدقه تلك الكوارث الشاملة التي وقعت في العالم كله، لأنه ﷺ مبعوث إلى العالم كله. والتاريخ شاهد على أن العذاب حل بالعرب خاصةً عند بعثته (البخاري: التفسير: الدخان)، كما أنزل الله آفات عالمية أيضًا بعد بعثة النبي ﷺ بفترة وجيزة.

وكلمة ﴿كتاب معلوم﴾ تعني المدة التي يعيّنها النبي لنـــزول العذاب بتوجيه من الله تعالى. والمراد من القرية هنا القوم الذين يصيبهم العذاب نتيجةً لمعارضة النبي. ولكنهم لا يتعرضون للعذاب إلا بعد أنباء واضحة.

مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥

شرح الكلمات:

أجل: الأجل: مدّةُ الشيء والوقتُ الذي يحلّ فيه (الأقرب).

أمة: الأمة: الجماعة؛ الجيل من كل حي (الأقرب).

التفسير: لقد قال المفسرون في معنى قوله تعالى ﴿ما تسبق﴾ وقوله تعالى ﴿وما يستأخرون﴾ أقوالاً لا تسمن ولا تغنى من جوع، وأرى أن المراد منها أنه من المستحيل أن تفلت أمة من الأمم من العذاب بعد أن ينـــزل الوعيد به.. أي لا يمكن أن يحلّ العذاب في موعده ومع ذلك لا يضرهم ولا يهلكهم. فهذا محال حتمًا. كما أنه لا يمكن أن يتأخر العذاب دائمًا دون أن يصيبهم. لا شك أن معارضي الأنبياء يُعطَون المهلة لبعض الوقت لتُتاح الفرصة لمن كان الهدى من نصيبه، ولكن يستحيل أن يُمهَلوا في كل مرة، دون أن ينـــزل العذاب في حياة ذلك النبي أو أتباعِه.

فالآية تحذّر الكفار بألا يظنوا أنهم في مأمن من العذاب، إذ من المحال أن يكونوا في مأمن من الهلاك إلا بأحد الطريقين: الأول أن يحل بهم العذاب دون أن يدمّرهم، والثاني أن يؤجَّل العذاب دائمًا ولا يصيبهم أبدًا؛ ولكن لن يحدث أي من هذين الأمرين، فيجب ألا يتجاسروا على المعارضة مغترّين بالمهلة.

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

الذكر: التلفظُ بالشيء وإحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ الصيتُ، ومنه: له ذكر في الناس؛ الثناءُ؛ الشرفُ، وفي القرآن: إنه لذكرٌ لك ولقومك؛ الصلاةُ لله تعالى والدعاء، يقال: إذا حَزَبَه أمرٌ فَزَعَ إلى الذكر؛ الكتابُ فيه تفصيل الدين ووضعُ الملل. والذكرُ من الرجال: القويُّ الشجاع الأبيُّ. والذكرُ من المطر: الوابلُ الشديد. والذكرُ من القول: الصلبُ المتين. (الأقرب)

مجنون: جُنّ الرجل جَنًّا وجُنونًا: زال عقلُه، وقيل: فسد. وجُنَّ الشيءُ عنه: استتر. والجنون: مصدر جَنَّ؛ زوالُ العقل، وقيل: فساده. والمجنون: من زال عقله أو فسد. (الأقرب)

والجِنّة: جماعة الجن، قال تعالى ﴿من الجِنّة والناس﴾، وقال تعالى ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسبًا﴾. والجِنّة: الجنونُ، قال تعالى ﴿ما بصاحبكم من جنّة﴾.. أي جنون. والجنون: حائلٌ بين النفس والعقل. وجُنّ فلانٌ: قيل: أصابه الجنُّ، وبُني فعلُه على فُعِلَ كبناء الأدواء نحو: زُكِمَ ولُقِيَ وحُمَّ؛ وقيل: أصيبَ جَنانُه؛ وقيل: حيلَ بين نفسه وعقله فجُنّ عقله بذلك. (المفردات)

هذا ما ذكره صاحب المفردات من آراء الناس حول ماهية الجنون. مما يدل على أن قولهم: (فلان مجنون) لا يعني بالضرورة أنه أصابه الجن، بل معناه الحقيقي أن عقله قد فسد. فالذين يتبعون الأوهام يفسرونه بأن جنيًّا من الجِنة غضِب عليه

فأفسد عقله، وأما الذين يعتبرون الأحاسيس والعواطف مصدرًا للأسقام والأمراض فيفسرونه بأن قلبه أصيبَ بصدمة. والذين لهم إلمام بالطبيعيات يقولون إن خللاً حصل بعقله. وبالاختصار فإن كلمة (الجنون) لا تعني إصابة الجن، وإنما يرى البعض أن إصابة الجن سبب من أسباب الجنون.

ويضيف صاحب المفردات فيقول: ﴿معلَّمٌ مجنونٌ﴾.. أنْ ضامَّه مَن يعلِّمه مِن الجنّ. وكذلك قوله تعالى: ﴿أئنا لَتاركو آلهتنا لشاعرٍ مجنون﴾.

والحق أن صاحب المفردات قد ذكَر هذا المعنى تحت تأثير التفاسير الأخرى، وإلا فهو غير موجود في القواميس الموثوق بها، التي تقول إن المجنون هو من أصابه مرض الجنون.

وورد في القاموس العصري تحت كلمة المجنون: Mad, Crazy, Insane, Fool, Foolish.

التفسير: لقد أنبأ الله ﷻ من قبل أن الكفار سيقولون في أنفسهم مرة بعد أخرى: ليتنا كنا مسلمين، والآن يخبر أنهم عند سماع نبأ هلاكهم سيقولون في استغراب شديد: لا شك أنك مجنون حيث تدّعي بهذا، ولسوف ترى قريبًا كيف نسحَقك مع أتباعك سحقًا.

أما إذا اعتبرنا كلمة ﴿ربما﴾ تفيد المستقبل بمعنى أن الكفار سوف تتملكهم الحسرة لدى رؤية ازدهار الإسلام، فيقولون: ليتنا كنا مسلمين، أو ليتنا لم نحارب المسلمين، أو ليتنا سلّمنا نحن أيضًا أمرنا إلى الله متوكلين عليه.. فتعني هذه الآية: أنهم لدى سماع هذا الإعلان سيعتبرونه دعوى رجل مجنون، ويقولون: إنه لمجنون من يدّعي بهذه الدعاوى العريضة، إذ من المستحيل أن تتولد عندنا نحن أعداء الإسلام مثلُ هذه الرغبة، وأنّى لهذا النبي ولأتباعه أن يحقّقوا الرقيّ بحيث نغبطهم عليه.

"الذكر" اسم من أسماء القرآن الكريم، ويعني الشرف كما قال الله تعالى ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذِكركم﴾.. أي شرفكم. وكان هذا الاسم معروفا لدى

الكفار، وقد استخدمه الكفار هنا تعييرًا للمسلمين. ذلك أن الحديث هنا يدور عن ازدهار المسلمين وعزهم وهلاك الكفار وهوانهم. ويشبه قولهم هذا قولَ الله تعالى لشخص من أهل النار: ﴿ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾(الدخان: ٥٠).. بمعنى: انظُرْ إلى أين أوصلتك عزتك وكرامتك.

قال بعض الكتّاب المسيحيين – بناءً على قول الكفار: ﴿إنك لمجنون﴾ – أن هذا يؤكد كون محمد مصابًا بنوع من الجنون وإلا لما سمّاه العرب مجنونًا، إذ لا أحد ينسب الجنون إلى شخص سليم العقل!

وقد أخطأ هؤلاء في تحديد معنى الجنون سعيًا منهم لاتهام النبي ﷺ. فقد ترجم المسيحي جورج سيل هذه الآيةَ كالآتي:

"Thou art certainly possessed with a devil." (تفسير القرآن لـِ "ويري").. أي لا شك أن شيطانًا قد استحوذ عليك.

وكتب المستشرق رودويل ما يلي:

"Thou art surely possessed by a djinn." (ترجمة القرآن لرودويل).. أي أنه قد أصابك أحد من الجن.

وقال القسيس بامر: "Verily thou art possessed." (ترجمة القرآن لبامر).. أي لا شك أنك واقع في قبضة روح شريرة.

وكأن المجنون عندهم من كان واقعًا تحت تأثير شيطان أو جنّ. ولكن هذا المعنى لا ينطبق هنا أبدًا، بل إن المجنون هو من اختل عقله كما هو ثابت ومسجل في القواميس المذكورة أعلاه.

الواقع أن الكتّاب المسيحيين قد حاولوا إلصاق هذه التهمة فرارًا من التهمة الموجَّهة إليهم هم، حيث ورد في أناجيلهم أن اليهود كانوا يتهمون المسيح عليه السلام بأن فيه شيطانًا. ولكن هؤلاء النصارى لم يفكروا أن التهمة ضد المسيح كانت من قِبل اليهود، وأما هذه – ضد النبي ﷺ – فهي من قِبل مشركي مكة؛ وكان اليهود يؤمنون أن الجن روح شريرة، وأن من لَزِمَتْه تلك الروحُ الشريرة يصير

شخصًا شريرًا؛ ولكن المشركين كانوا يعبدون الجن، ولم يقصدوا بقولهم ضد النبي ﷺ ما أراده اليهود ضد المسيح عليه السلام، ولو كان الأمر كذلك لما عارضوا الرسول ﷺ بل لخافوه وهابوه.

والظلم الآخر الذي ارتكبه المعترضون النصارى أنهم قالوا: ما دام أهل مكة قد رمَوا محمدًا بالجنون فلا بد أن هناك سببًا لذلك. ثم لفّقوا هذا السبب من عند أنفسهم وقالوا أن محمدًا كان مصابًا - والعياذ بالله - بنوبات الصرع. ثم استشهدوا على قولهم بذلك الحادث الذي ذكره بعض المؤرخين، والذي قد وقع للنبي ﷺ عندما كان صبيًّا عند السيدة حليمة. ذات مرة كان النبي ﷺ مع صبيان كبار يرعون الغنم في البرية إذ أتاه شخصان بلباس أبيض برّاق، فألقياه على الأرض، وشقّا صدره، ثم أخذا منه شيئًا أسودَ اللون ورميَا به بعيدًا (راجِعْ مسند أحمد، مسند الشاميين، حديث عتبة بن عبد السلمي رقم ١٦٩٩٠). يستدل هؤلاء النصارى من هذا الحادث أن محمدًا الذي كان صبيًّا عندئذ لا يمكن أن يكون قد كذب على أهله ملفّقًا القصة منه، بل لا بد أن هذا قد حدث به فعلاً، وكان ذلك نوبةً من نوبات الصرع!

إنني لا أدخل الآن في النقاش ما إذا كان المصاب بالصرع يستطيع - أثناء نوبات الصرع - أن يفكّر في مثل هذه المشاهد ويراها ويحفظها أم لا، غير أنني قد طالعت كتب الطب التي تتناول مرض الصرع بكل تفاصيله وأعراضه، ولم أقرأ في أحد منها أبدًا أن المصاب به يمكن أن يرى مثل هذا المشهد أثناء نوباته ثم يحفظه بنفس الترتيب والتفصيل.

كما أن عيون المصاب بهذا المرض وصورته وحالته العقلية وأعراضه الأخرى نفسها تدل بكل وضوح أن هذا الشخص مريض بالصرع، إذ تجده دومًا كثير الشكوى بلا داع، يشكو من كل أذى بسيط، فارغ الذهن حائر الجنان، وعصبي المزاج يغضب غضبًا شديدًا عند كل صغيرة وكبيرة. ولكن النبي ﷺ لم يكن به شيء من هذا القبيل أبدًا.

يقول لنا هؤلاء النصارى: إذا لم يكن هناك سبب كهذا فلماذا كان كل القوم يسمّون محمدًا مجنونًا؟ وأنا أقول: لقد خلق الله في الدنيا شخصًا آخر اسمه يسوع، وقال الناس عنه أيضًا إنه فريسة للشيطان ومجنون حيث جاء: "فحدَث أيضًا انشقاق بين اليهود بسبب هذا الكلام، فقال كثيرون منهم: به شيطان وهو يهذي. لماذا تستمعون له" (يوحنا ١٠: ١٩-٢٠). كما ورد عن أحد تلاميذ هذا العبد المختار واسمه بولس: "وبينما هو يحتجّ بهذا قال فَسْتُوسُ بصوت عظيم: أنت تهذي يا بولس. الكتب الكثيرة تحوِّلك إلى الهذيان". (أعمال الرسل ٢٦: ٢٤)

فأقول لهؤلاء النصارى: قبل أن تتّجهوا إلى سيدنا محمد ﷺ بمثل هذه الترهات عليكم أن تُثبتوا أولاً أن نوبات الصرع هي التي كانت وراء رمي اليهود المسيحَ وبولس بالهذيان، لأن من واجبكم أن تسوّوا القضية أوّلاً في بيتكم.

يا ليت هؤلاء المسيحيين أنصفوا وفكّروا بتأنٍّ ليدركوا أنه إذا كان ممكنًا أن يُرمى المسيح عليه السلام بالهذيان والجنون بمجرد وعظه للقوم دون أن يكون مصابًا بنوبات الصرع.. فكيف لا يُتوقع من الجاهلين بالعالم الروحاني أن يسمّوا سيدنا محمدًا ﷺ مجنونًا حين ادّعى هذه الدعوى الكبيرة: ﴿ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾؟

واعتراض النصارى يبدو أكثر غرابة وبشاعة حين نجد الآية التالية تبيّن لنا سبب رمي الكفار النبي ﷺ بالجنون، فإنهم ما كانوا يطلقون عليه هذه التسمية لنوبات الصرع، بل لأنهم كانوا يستبعدون دعاويه ويعتبرونها خارجة على العقل والقياس. والحق أن كل الأنبياء مشتركون في هذا الأمر، فما من نبي إلا وقد ادعى بما لم يكن أهل زمنه مستعدين لتصديقه.

لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

لوما: حكى النحّاس: "لوما" و"لولا" و"هلا" واحد. (تفسير القرطبي، تحت هذه الآية)

التفسير: منذ عدة سور لا يزال الحديث يدور حول دعوى النبي ﷺ أن الإسلام سوف ينتصر في آخر المطاف ببركة الوحي النازل عليه ﷺ، لأنه كلام متسم بمزايا كثيرة بحيث لن يستطيع المعارضون الصمود أمام تأثيره. فلم يملك الكفار جوابًا على ذلك إلا أن قالوا إنك مجنون يا محمد، ودليلنا أنك تقول إن الملائكة تنـــزل عليك بالوحي، ولو كان الأمر كذلك لرأى الناس أيضًا هذه الملائكة نازلةً عليك. وما داموا لا يرون أي ملك ينـــزل عليك فهذا دليل أن ادعاءك وهمٌ، وبالتالي برهان على إصابتك بالجنون.

مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الحق: حقَّه حقًّا: غلَبه على الحق. وحقّ الأمرَ: أثبتَه وأوجبَه؛ كان على يقين منه. حقَّ الخبرَ: وقَف على حقيقته. والحق: ضد الباطل؛ الأمرُ المقضيّ؛ العدلُ؛ الملكُ؛ الموجودُ الثابتُ؛ اليقينُ بعد الشكّ؛ الموتُ؛ الحزمُ (الأقرب).

منظَرين: أنظَرَه الدَّينَ: أخّره، يقال: كنت أُنظر المعسرَ أي أُمهله (الأقرب).

التفسير: كلمة ﴿الحق﴾ في قوله تعالى ﴿ما ننـــزّل الملائكةَ إلا بالحق﴾ إما تعني الكلامَ الحق، فيكون المراد أن الملائكة إنما تنـــزل حاملةً وحي الله تعالى، ولكنكم أيها الكفار لستم من المرسَلين أو ممن يستحقون تلقّي الوحي حتى تشرّفكم الملائكة بكلام الله ﷻ.

أو تكون كلمة ﴿الحق﴾ هنا مفرد الحقوق، فيكون المراد أن الملائكة تنـــزل على كل إنسان بما يستحقه من الخير أو الشر. والملائكة التي تنـــزل على محمد ملائكة رحمة، وهو الذي يمكن أن يراها، ولا يمكن أن يراها من استحق غضب الله ﷻ. إنَّ أئمة الكفر هؤلاء ستنـــزل عليهم ملائكة العذاب التي لن تنفعهم رؤيتها شيئًا، إذ ستأتي لتهلكهم، ولن تُمْهِلهم أكثر.

وهذا ما حدث يوم بدر إذ نزلت ملائكة العذاب وقد رآها بعض الكفار بصورة الكشف، ولكن ما كان لهم أن ينتفعوا برؤيتها، لأن ذلك اليوم كان يوم هلاكهم. (السيرة النبوية لابن هشام: الملائكة تشهد وقعة بدر)

قد بيّن الله تعالى هنا أمرًا هامًّا جدًّا ألا وهو أن كلام الملائكة يكون مطابقًا لباطن الإنسان.. بمعنى أن إلهام كل إنسان يكون وفق حالة قلبه. يظن الناس عمومًا أننا إذا تلقينا إلهامًا فقد أصبحنا من أهل الله الكبار، ولكن هذا وحده لا يكفي، لأن كل واحد يتلقى الإلهام بحسب فطرته وحالة باطنه. كان هناك شخص ساذج من أهل المناطق الجبلية يأتي إلى قاديان بحثًا عن العمل، وكان يقوم بالأعمال المنـــزلية عندنا عمومًا، وكان في بعض الأحيان يزور الخليفةَ الأول لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، وكلما نصحه حضرته بالصلاة ردّ عليه قائلا: الصلاة لا تلائمني. وبعد أيام وجده حضرة الخليفة في المسجد قائمًا يصلي، ولما فرغ من صلاته سأله الخليفة: ما هذا يا فلان!؟ فأجابه: لقد تلقيتُ البارحة إلهامًا يقول: قمْ أيها الحيوان وصَلِّ، ولذلك تراني بدأت الصلاةَ.

والواضح أن هذا لا يمكن أن يكون من إلقاء الشيطان، بل إنه من إلهام الرحمن يقينًا، ولكنه كان وفق منـــزلة هذا الشخص. فلا ريب أن تلقّي الإلهام ليس بشيء، بل لا بد من النظر في نوعيته، لنرى هل يحتوي الإلهام على أي تعبير عن حب الله لصاحب الإلهام، أو هل فيه ما يدل على عظمة شأنه في الحضرة الإلهية أم لا.

كما أننا نعرف من الآية قانونا عاما يؤكد أن الملائكة إنما تنـــزل بالحق، والبديهي أن المؤمنين يتفاوتون في الدرجات، فمنهم الأدنى ومنهم الأعلى ومنهم من هو نبي مرسل من عند الله تعالى. ثم إن الأنبياء أيضًا ذوو درجات مختلفة. لا شك أن تسمية النبي تطلَق على خاتم النبيين ﷺ كما تطلَق على زكريا وإلياس ويوسف وغيرهم عليهم السلام، ولكن كما أن اشتراكهم في الاسم لا يعني تساويهم في الدرجة، كذلك تمامًا لا يتساوى وحيهم رغم أن لهم صفةً نبوية مشتركة، وإنما ينـــزل الوحي على كل نبي بحسب درجته عند الله تعالى.

وحين نأخذ هذا الأمر في الاعتبار نجد حلاً للسؤال القائل: لماذا لم تكن الأسفار السماوية الأخرى كالإنجيل والتوراة والزبور وغيرها منقطعةَ النظير كالقرآن الكريم؟ ذلك أن الله تعالى قد جعل ذلك الوحي مباركًا بحسب درجات أولئك الأنبياء ومهماتهم، إذ كيف يمكن أن يفوّض الله إليهم أعمالاً متفاوتة النوعية والدرجة، بينما لا يهيئ لهم أسبابًا متفاوتة؟ من البديهي أنه ﷻ سيهيّئ لهم الأسباب التي تتلاءم مع رسالاتهم، وسيعيِّن العمّالَ وفق نوعية الأعمال.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الذكر: (انظر شرح كلمات الآية ٧)

التفسير: من معاني "الذِّكر" الشرفُ والنصيحة. وهذا هو المعنى الذي ينطبق هنا. لقد قال الكفار من قبل معيِّرين الرسولَ ﷺ: يا أيها الذي نزل عليه هذا الكلام المشرِّف العظيم إنك لمجنون، فجاء الرد عليهم من الله تعالى بقوله: ألا إنا نحن الذين نزّلنا عليه هذا الكلام المشرِّف العظيم.

إن هذه الآية تبلغ من العظمة والروعة بحيث إنها تشكّل بمفردها برهانًا قويًّا ساطعًا على صدق القرآن الكريم. لقد تكرر فيها التأكيد بطرق شتى وأدوات

مختلفة مثل: (إن)، وضمير المتكلم للجمع (نا)، ولام التوكيد، وضمير المتكلم للجمع (نحن)، ثم مرة أخرى (إن) ولام التوكيد. ذلك أن المعارضين كانوا سخروا من النبي ﷺ قائلين ﴿إنك لمجنون﴾، فرد الله ﷻ عليهم مؤكدا قوله بأربعة توكيدات، فقال ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾. نعم، نحن الذين أنزلنا عليه هذا الكلام المشرِّف حقًّا، ونحن الذين سنحمي هذ الكلام حتمًا.

ما أقوى هذه الكلماتِ وما أشدَّها وقعًا، وما أجلَّ هذا الميثاقَ الذي يأخذه الله على نفسه!

ثمة أمر آخر جدير بالانتباه وهو أنه من ضمن ما قصده الكفار بتعييرهم النبيَّ ﷺ هو أن هذا الكلام العظيم الذي تزعم أنه سيكون مدعاة لشرف العالم أجمع يتطلب أن تنـــزل معه الملائكة! فرد الله عليهم أنكم أيها الحمقى تطالبون بنـــزول الملائكة مع هذا الوحي! ألا، فاعلموا أن هذا الكلام فيه من السمو والعظمة ما يجعل قدرة الله بذاتها تتكفل بحفظه ورعايته، وسنرى بعد ذلك من الذي يتجاسر على محاولة الإساءة إليه.

وهذا لا يعني أن الملائكة لا تحفظ القرآن الكريم، لأنه ما دام الله ﷻ الذي هو سيدهم ومالكُهم حريصًا على حفظه فكم بالحري أن تقوم الملائكة أيضًا بحفظه؛ والحق أن الله ﷻ قد أشار بقوله ﴿وإنّا له لحافظون﴾ إلى موضوع إضافي، وهو أن هذا الوحي يحتوي على مزايا ومحاسن خصوصية بحيث إن الملائكة أيضًا لا تقدر على حفظها وحراستها، ولذلك سنتولى هذه المهمة بأنفسنا. لا شك أن الملائكة تقوم بحماية كل شيء، ولكن الله يتولّى بنفسه حمايةَ بعض الأشياء لحكمة معينة، والحكمة الكامنة هنا هي الفارق الذي يميّز القرآنَ عن باقي الأَسفار، والذي سوف أشرحه لكم بعد قليل.

إن هذه الآية الشريفة برهان عظيم على صدق القرآن الكريم، وإن كل من لم يُعمِه التعصب إذا تدبر فيها بأمانة أدرك أنها ليست من ادعاء البشر. إن المفسرين

كلهم أجمعين متفقون على أن هذه السورة مكية بلا خلاف. فيرى ابن هشام أنها نزلت في السنة الرابعة من البعثة النبوية.

إن المستشرقين الغربيين توّاقون عمومًا لمخالفة المفسرين المسلمين فيما يتعلق بزمن نزول السور، وقد اخترعوا لذلك ما يسمّونه في زعمهم "قاعدة الشهادة الداخلية".. أي أن موضوع السورة نفسه يعيّن زمنَ نزولها. وقد أساءوا استخدام هذه القاعدة لدرجة أنه لم يبق هناك من شك في أنها ليست شهادة القرآن الداخلية وإنما هي شهادة خفايا باطنهم الخبيث. إلا أنني فرحت كثيرا عندما عرفت أثناء مطالعتي لما كتبه المستشرقون أنهم أيضًا لم يجدوا بدًّا من اعتبار هذه السورة مكية. فيقول سبرينجر: إنها نزلت في السنة الرابعة من البعثة. وأما رودويل- الذي يعتبر نفسه نابغة في موضوع ترتيب سور القرآن- فإنه هو الآخر قد وضعها في ترتيبه للقرآن بين السور التي نزلت في السنوات الأولى من البعثة.

ولكن نولدكه (Noeldeke) يختلف قليلا، بناءً على القاعدة الخاطئة نفسها التي يسمونها الشهادة الداخلية، فيقول:

١: بما أن السورة تتحدث عن تعذيب الكفار للمؤمنين فلا يمكن أن تكون مما نزل في الفترة الأولى من البعثة.

٢: لقد ورد فيها لفظُ ﴿يسبّح بحمده﴾، وهذا اللفظ لم يرد في السور التي نزلت في أوائل البعثة النبوية، وعليه فلا يمكن أن تكون السورة من الفترة الأولى.

٣: جاءت فيها كلمة (المشركين)، وبهذا فلا يمكن أن تكون من السور الأوائل.

ثم يضيف قائلا: ولكنها مكية دون ريب حيث نزلت في أواخر الفترة المكية.

لست هنا بصدد ما إذا كان نولدكه مصيب في رأيه أم غيره، وإنما أريد التأكيد على أن الباحثين العصريين سواء من العرب أم من الغربيين متفقون مع المفسرين القدامى على أن هذه السورة مكية.

وأما إذا افترضنا نزولها في السنوات الأخيرة من الفترة المكية فهذا أيضًا لا يقلل من عظمتها شيئًا، لأن تلك الفترة كذلك كانت من أحلك الظروف

بالنسبة للمسلمين، حيث عاشها النبي ﷺ محاصَرًا مع أتباعه في شعب أبي طالب، ولم يتيسر للمسلمين ملاذ يحتمون به. وفي تلك الظروف العصيبة الحالكة يقول الله ﷻ: لا داعي لأن تنـــزل الملائكة بهذا القرآن، فإن الله تعالى ذاته سيتولى حمايته والحفاظ عليه.

لله، ما أجلَّ هذا الكلامَ وما أشدَّه قوةً!! إن الذين يعرفون اللغة العربية هم الذين يمكن أن يدركوا جيدًا مدى قوة قوله تعالى ﴿إنا نحن نزَّلْنا الذِّكْرَ وإنا له لَحافظون﴾. أليس غريبًا حقًّا أنه في الوقت الذي كان المسلمون فيه محاصَرين من قبل الأعداء خائفين على حياتهم.. يصدر الإعلان السماوي أن يا أيها الكافرون، قوموا ولا تدّخروا وسعًا ولا تألوا جهدًا في القضاء على رسالة القرآن، فإنكم لن تنجحوا في مرامكم، لأن الله تعالى سوف يتولى حمايته وحفظه. وهكذا – وعلى الرغم من العداء الشديد – يأتي يوم يتحرر فيه النبي ﷺ وأصحابه من حصار الأعداء، ويحقق الازدهار، وتتكون حوله ﷺ جماعة عظيمة، وتتم حماية القرآن كما ينبغي، ولا تزال هذه الحماية قائمة إلى يومنا هذا، وستظل إلى يوم الدين! فانظروا، هل كتب الله هذه الحماية المنقطعة النظير لأي كتاب سماوي آخر؟

يقول السير وليم ميور :

"What we have, though possibly created by himself, is still his own."

أي من الممكن جدًّا أن يكون القرآن من اختراع محمد (ﷺ)، وربما أحدث فيه تغييرا وتعديلا، إلا أنه مما لا شك فيه أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو نفسه الذي أتانا به محمد. (حياة محمد ص ٥٦٢)

ويضيف قائلا:

"We may upon the strongest presumption affirm that every verse in the Qur'an is genuine and unaltered composition of Muhammad himself."

أي أننا نستطيع الجزم – بناءً على قياسات قوية – بأن كل آية في القرآن الذي بين أيدينا هي آية أصلية غير محرفة، بل إنها هي هي كما أوردها محمد (ﷺ). (المرجع السابق)

وبعد قوله بأن ترتيب القرآن أمر غير مفهوم يستطرد قائلا:

"There is otherwise every security internal and external that we possess the text which Muhammad himself gave forth and used."

أي غـــير أن لدينا جميع أنواع البراهين القاطعة – سواء كان من قبيل الشهادة الداخلـــية أو الخارجية – أن هذا الكتاب الذي هو بين أيدينا هو نفس الكتاب الذي عرضه محمد على العالم واتخذه دستورًا لحياته. (المرجع السابق ص ٥٦١)

ثم يقول:

"And conclude with at least a close approximation to the verdict of Van Hammer that we hold the Qur'an to be as surely Muhammad's words as the Muhammadans held it to be the word of God."

أي أننا، وإن لم نتفق مع السيد وان هامر تمامًا، إلا أننا نتوصل إلى نتيجة مماثلة لما توصل إليه، فنؤكد أن القرآن المتداول اليوم هو بكل يقين نفسُ ما اخترعه محمد مثلما يؤكد المسلمون أنه كلام الله يقينًا، لم يتعرض لتحريف ولا تبديل.

وأما نولدكه فيقول:

"Slight clerical errors there may have been, but the Qur'an of Othman contains none but genuine elements, though sometimes in every strange order. Efforts of European scholars to prove the existence of later interpolations in the Qur'an have failed."

أي من الممكن أن يتضمن القرآن أخطاء إملائية بسيطة، ولكن فحوى القرآن الذي قدّمه عثمان (رضي الله عنه) للعالم هو نفس ما عرضه محمد (ﷺ)، وإن كان ترتيبه يبدو غريبًا جدًّا في بعض الأحيان. لقد فشلت تمامًا محاولات العلماء الأوروبيين في إثبات أي تحريف في القرآن فيما بعد. (الموسوعة البريطانية، القرآن)

هذه شهادات من ألد أعداء الإسلام، والفضل ما شهدتْ به الأعداء.

أو ليس من أعظم الشهادات على كون هذا الكتاب من عند الله ﷻ أن نزل بين قوم أُمّيين، ومع ذلك ظل محفوظًا تمامًا. بينما نزلت التوراة والإنجيل بين قوم كانوا يُعتبرون مثقفين، ورغم هذا لم تُكتب لأي منهما السلامة من أيدي المحرّفين! يقول السير وليم بهذا الصدد بكل حسرة ومرارة: إن المقارنة بين كتاب

المسلمين النـــزيه تمامًا من أي تحريف وبين أسفارنا ذات النصوص المتباينة المتناقضة هو كالمقارنة بين شيئين لا شَبَهَ بينهما على الإطلاق. (حياة محمد ص ٥٥٨)

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل المحافظة التامة على القرآن حتى اليوم كانت عن طريق الصدفة فحسب؟ إن تاريخ الإسلام يبين لنا أن هذا الأمر لم يكن صدفة، بل إن حمايته الظاهرة تمّت بطريقين ذُكرا في مستهل هذه السورة وهما: (الكتاب) أي الكتابة و(القرآن) أي القراءة؛ فإن الله تعالى قد تولى المحافظة عليه مع نزول الآية الأولى منه حيث كانت آياته تُكتَب وتدوَّن أولاً بأول. ثم هيأ الله ﷻ لهذا القرآن حفّاظًا مشغوفين به يحفظون كل حرف منه عن ظهر قلب؛ يرددونه ليل نهار، ويقرؤونه على أسماع الآخرين. كما فرض الله ﷻ على المسلمين أن يقرءوا في صلواتهم ما تيسَّر من القرآن عن ظهر قلب.

ولو قيل: إنما حُفظ القرآن لأن محمدًا فكّر بحفظه بهذا الطريق، لقلنا: حسنًا، فلماذا لم تخطر هذه الفكرة على بال زرادشت وموسى وصاحب "الفيدا" وغيرهم؟ مما يدل أن الله تعالى هو الذي ألقى هذه الفكرة في قلب محمد ﷺ. عندما عاد كولومبس من اكتشاف أمريكا قال له بعض الحساد: أي مفخرة لك في ذلك؟ لو أننا خرجنا لاكتشفناها نحن أيضًا. فانبرى كولومبس للرد عليهم بأن أخذ بيضة وناولهم إياها قائلا: حسنًا، تعالوا ثبِّتوا لي هذه البيضة على الطاولة التي أمامكم؟ فحاول الجميع ولكن بدون جدوى. فقام كولومبس وأتى بإبرة ثَقَبَ بها البيضة، واستخرج شيئًا من مائها اللاصق ووضعه على الطاولة، ثم ثبَّت به البيضة. فقالوا: نحن أيضًا نستطيع فعلَ ذلك. فقال لهم: لقد احتججتم عن تقصيركم في اكتشاف أمريكا بأن الفرصة لم تتهيأ لكم، ولكني كنت منحتُ لكم الفرصة لتثبيت البيضة، فلماذا لم تستعينوا بعقولكم كما فعلتُ أنا. *

(Admiral of The Ocean Sea, V. ١ P. ٣٤٩)

* هناك اختلاف بسيط بين ما ورد هنا وما ورد في المرجع الأصلي. (المترجم)

كذلك نقول للمعترضين: لماذا لم يلجأ أهل الديانات الأخرى إلى التدابير التي اتخذها صاحب القرآن للحفاظ عليه؟ ولماذا لم تخطر هذه التدابير إلا على بال محمد ﷺ؟

ويجب أن لا يغيب عن البال أنه لم يكن بوسع محمد ﷺ، بدون عون الله تعالى، أن يُلقي العزيمة في قلوب أولئك الذين انبروا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويقرؤونه في صلواتهم، ولذلك أخبر الله تعالى ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾.. أي نحن الذين سنأتي بالذين سيقومون بحفظ القرآن. ولقد مضى على هذا العهد الإلهي أكثر من ١٣ قرنًا ظهر فيها على الدوام ملايين الحفاظ.

هناك من الأوروبيين الذين يجهلون هذه الحقيقة فيقولون: من الذي يستطيع حفظ هذا الكتاب الضخم عن ظهر قلب؟ فليعلم هؤلاء أنه يوجد حتى في قريتنا الصغيرة هذه قاديان العديد من حفَظة القرآن الكريم، منهم ابني ناصر أحمد – سلّمه الله تعالى – الذي كان فرغ من حفظه وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره. الحق أن القدرة الإلهية الخاصة قد أنزلت القرآن بكلمات وترتيب خاص بحيث يتم حفظه بكل سهولة. إنه ليس بشعر، ولكنه أسهل حفظًا من الشعر. فإن حفظه لا يستغرق حتى نصف ما يُستغرق في حفظ العبارات الإنجليزية أو الأردية. يقول أحد الكتّاب الإنجليز: إن القرآن كلام عجيب بحيث يضطر الإنسان لقراءته بالترتيل. فالواقع أن لغة القرآن وأسلوبه هو أيضًا من الأسباب التي خلقها الله تعالى لحفظه من الضياع أو التحريف.

بالإجمال فهذه هي الوسائل الأربع التي خلقها الله تعالى لحفظ القرآن الكريم: (أولاً): لقد هيأ الله منذ البداية أناسا يحفظون القرآن من أوله إلى آخره؛ و(ثانيًا): جعله كتابًا سهل اللغة جميل العبارة بحيث يسهل حفظه،؛ و(ثالثًا): فرض قراءة ما تيسر منه في الصلوات عن ظهر قلب؛ و(رابعًا): ألقى في قلوب الناس شوقًا وشغفًا غير عاديين لتلاوته. يعترض النصارى دومًا على المسلمين بأنهم يعكفون على قراءة القرآن بلا تدبّر دون أن يفهموا ما يقولون؟ ولكن أحدًا لو تدبر في

هذه العادة حقًّا لتبين له أن هذا الأمر أيضًا تصديق للوعد الذي قطعه الله في هذه الآية. ذلك أن الله ﷻ قد ألقى في قلوب المسلمين حبًّا جمًّا للقرآن الكريم بحيث إنهم لا يبرحون يتلونه سواء فهموا كلماته أم لم يفهموها. لا شك أن على كل مسلم ومسلمة أن يقرأ القرآن ويتدبر معانيه، لأن التهاون في هذا الأمر قد سبّب دمارًا كبيرًا للمسلمين، غير أن ما أريد تأكيده هو أن استمرارهم في تلاوته وحفظه لبرهان ساطع على تحقق الوعد الذي قطعه الله في هذه الآية.

الحق أنه لو أُحرقت نسخ التوراة كلها اليوم لن يستطيع أصحابها أن يجمعوا حتى خمس ما ورد فيها، ولكن لو فُقدت – لا سمح الله – جميع المصاحف من العالم لاستطاع المسلمون جمع القرآن بصورته الكاملة خلال أيام، بل إننا نستطيع كتابته كاملا حتى في قريتنا الصغيرة هذه قاديان، ناهيك عن المدن الكبيرة. ولكن ليس هناك أي كتاب سماوي آخر يمكن أن يبقى محفوظًا بشكل كامل، لو أُتلف مرة. إن هذه لميزة قد خصّ بها الله القرآن الكريم وحده.

ومن الوسائل التي اتخذها الله لحفظ كلامه الكريم أيضًا أنه أشاعه في مختلف أقطار العالم عقبَ اكتمال نزوله على الفور، فلم يبق هناك احتمال لتغييره وتحريفه. يقال إن الحكومة الروسية أرادت مرة طبع المصحف بعد حذف آيات الجهاد منه، فقيل لها إن القرآن قد أشيع في الدنيا كلها وأن هذه الآيات لموجودة في العالم أجمع.. فأقلعت عن خطتها الخبيثة.

وكان من وسائل حفظ هذا الوحي أيضًا أن العلوم الإسلامية تأسست على القرآن الكريم نفسه، وهكذا تم حفظ كل حركة وسكون فيه. فمثلاً اختُرع علم النحو لخدمة القرآن حيث يقال عن نشوء هذا العلم إن أبا الأسود الدؤلي جاء سيدنا عليًّا ﷺ يشكو إليه مسلمًا حديثَ العهد بالإسلام كان يلحن في قول الله تعالى ﴿إن اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه﴾، حيث يقرأ خطأً: (ورسولِه)، وهذا باعث على الخوف من أن المسلمين الجدد قد يجدون صعوبة في فهم القرآن الكريم. وكان سيدنا علي ﷺ حينئذ على فرسه يريد الخروج، فأملى – وهو

على هذه الحال – على أبي الأسود بعضَ القواعد كنموذج وقال: أُنْحُ نَحْوَه.. أي ضَعْ القواعد على ذلك المنوال. ومن هنا سُمّي هذا العلم "النحو".

وهناك علم التاريخ الذي وضعه المسلمون أيضًا لخدمة القرآن الكريم لأنهم عندما أخذوا في تدوين أخبار الأمم الواردة في القرآن دوّنوا كذلك أحوال الأقوام الأخرى.

وهناك علم الحديث الذي بدأه المسلمون ليعرفوا كيف فسّر رسولهم الكريم ﷺ ما أُنزل عليه من عند الله تعالى.

ثم إنهم قاموا بتجديد علم الفلسفة عند تصدّيهم لمطاعن الفلاسفة في القرآن الكريم. وشقّوا في مجال المنطق طريقا جديدا أكثر تطوّرًا. ثم أبدعوا في تأسيس علم الطب على مبادئ جديدة بتوجيه من القرآن الكريم. ثم إنهم حين أرادوا ذكر الأمثلة والنظائر في النحو استشهدوا بآيات الذكر الحكيم، إذ اعتبروها أروعَ نموذج للأدب العربي، بل اقتبسوا آياته كنظائر في كل المجالات العلمية؛ وأرى أنه لو جُمعت آياته المقتبسة هنا وهناك في شتى المصادر والمواضيع لتمكنّا من جمع القرآن مرة أخرى دون اللجوء إلى أي مصدر آخر.

وهناك فائدة أخرى جناها الإسلام من اهتمام المسلمين بتحصيل العلوم المادية في سبيل خدمة القرآن. ذلك أنه.. بينما أصبح العلماء الماديون من أتباع الأديان الأخرى كارهين لكتبهم الدينية كراهة شديدة.. لم يبرح أصحاب هذه العلوم من المسلمين متمسكين بالقرآن خادمين له دائمًا، لأنهم كانوا يدركون تمامًا أن القرآن لا يخالف العلوم الحقيقية بل يؤيدها ويدعمها.

ومما ساعد على حفظ القرآن الكريم أيضًا أنه بعد نزوله توقفت اللغة العربية الفصحى عن التغير والتبدل. لم تبق في الدنيا لغة من اللغات على ما كانت عليه قبل ١٣ قرنًا إلا العربية. خذوا الإنجليزية مثلاً.. فإن ما كتبه بها جاسر وشيكسبير قبل ٣ قرون فقط غدا اليوم بحاجة إلى الشرح حتى يفهمه القارئ،

لأنه قد طرأ على اللغة تغير كبير في هذه الفترة الوجيزة أيضًا. ولكن القارئ لا يحتاج إلى القواميس القديمة لفهم لغة القرآن ما دام يعرف العربية الفصحى.

علاوة على هذه الوسائل الظاهرة لحماية نص القرآن فإن هناك تدبيرًا آخر لا دخل للملائكة فيه، قد اتخذه الله ﷻ للحفاظ على معاني القرآن، ألا وهو الإلهام. ذلك أن الملائكة ليست سببًا للإلهام الإلهي، بل الله تعالى هو الذي يكلّم عبادَه، وما الملائكة إلا وسيلة لإيصال ذلك الإلهام إلى البشر؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزَّلْنا الذِّكْرَ وإنا له لحافِظون﴾.. أي سوف نحافظ على هذا الوحي في المستقبل بإلهامنا المتجدد من حين لآخر.. وذلك ببعث المجددين والمأمورين الذين نوحي إليهم.

الواقع أن الكتاب الذي يكون محفوظًا في نصه فقط، من دون أن تكون معانيه محميةً من الدس والتزوير، لا يمكن اعتباره كتابًا محفوظًا حقًّا. فلو افترضنا أن "الفيدا" كتابَ الهندوس محفوظ بنصه، فلن يُعتبر مع ذلك محفوظًا بشكل تام، لأن اللغة التي نزل بها هذا الكتاب لم تعد محفوظةً، وبالتالي أصبحت معانيه مشتبهة كليةً. فما لم يبين أحدٌ المفهوم الصحيح لهذا الكتاب بإلهام إلهي فمن الذي يصدّق أنه يبيّن مفهومًا سليمًا، أو يعمل بهذا الكتاب كما أراد الله ذلك. ولا يمكن إزالة هذا العيب من هذه الكتب إلا أن يقيم الله من فترة إلى أخرى أناسًا يعودون بالقوم إلى المفهوم الصحيح للكتاب بتلقين منه ﷻ. ومثل هذه الحماية لم تتيسر بشكل دائم لأي كتاب إلا القرآن الكريم. لا شك أنها كانت ميسرة للأسفار الأخرى أيضًا عندما كانت تتمتع بالحياة.. أي كانت صالحة للعمل، أما الآن فلا. واليوم لا يحظى بهذه الحماية إلا القرآن وحده. إنه الكتاب الوحيد الذي لم يزل بين أتباعه في كل عصر أناس أخبروا أنهم قد تلقَّوا الوحي من الله مباشرة، وأما هذا الزمن الذي بلغتْ فيه غفلة الناس عن الدين ذروتَها، فقد بعث الله فيه من قام بتطهير تفسير القرآن من الحشو والشوائب كلية، وعرَضه على العالم بصورته الأصيلة الغراء مرة أخرى.. بحيث إن القرآن الذي كان قد عاد في

موقف النادم المعتذر أمام العلوم المعاصرة أصبح مرة أخرى في موقف المهاجم البطل.. فتفر منه الفلسفات والمذاهب كلها فرار الظباء من الأسد. فسبحان الله الملِك العزيز. وها إنني أتحدى- بفضل الله تعالى، ثم ببركة اتّباعي لهذا المبعوث الربانِي- أنه إذا طعن أحد من أصحاب العلوم المادية بشتى أنواعها في أي حكم من أحكام القرآن، فإنني سوف أفحمه بأدلة دامغة معقولة ومقنعة، وإن لم يعترف هو بهزيمته على الملأ عنادًا جرّاء حماسه العابر للجدال. هذا ما جرّبته منذ أكثر من ربع قرن، إذ لم يحدث - بفضل الله وعونه - ولا مرة واحدة أنْ رأيتُ وجه الندامة ظاهرًا أو باطنًا مُذ دخلت هذا المضمار.

وبالاختصار فإن الله تعالى لم يجعل العقل وحده سببًا لحماية معاني القرآن الكريم، ولم يترك أمر تفسيره في يد البشر فقط، بل قرر بأن يباشر بنفسه كشف معاني كلامه عن طريق الإلهام. وهكذا فإن هذه الثمار التي تؤتَى من حين لآخر للعاملين بالقرآن تمثل برهانا ساطعًا على كونه محفوظًا من التلاعب والتحريف. ذلك أن الدواء إذا كان نافعًا اعتبرناه دواءً ناجعًا وإلا فهو فاسد لا جدوى منه. وإذًا فإن هذه الثمار القرآنية المتجددة تؤكد أنه لا يزال محفوظًا من الفساد ومتمتعًا بالحياة يقينًا. وهذه ميزة لم تتيسر لأي من الأسفار الأخرى سواه.

هذا، وكما سبق أن ذكرنا فإن كلمة (الذكر) تعني أيضًا الشرف والنصيحة. وقد سُمّي القرآن بالذكر لأنه سيحقق للمؤمنين شرفًا وتقوى. إذن فقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ إشارةٌ إلى أننا نحن الذين نضمن تحقيق هذه المزايا في القرآن، لأنها إذا لم تظهر في هذا الوحي فقد ضاع ما فيه من تعليم، ولكننا لن ندعه يضيع هكذا أبدًا.

كما أن الآية تتضمن نبأً عن هلاك الكفار وغلبة المسلمين. ذلك أن القرآن الكريم يحتوي على أحكام تتعلق بمجالات الحياة كلها بما فيها السياسة والاقتصاد والاجتماع، والوحيُ الذي يشتمل على تشريع جديد لا تتجلى محاسن أحكامه العملية ما لم يكن مصحوبًا بحكومة في أول أمره. ولذلك كانت هناك حاجة إلى

أمة حاكمة تحافظ على هذا "الذكر"، ولم يكن بد من القضاء على الحكومة العربية لتوطيد حكومة جديدة.

يظن البعض أن قيام الحكومة الإسلامية كان إحدى المصادفات. وهذا خطأ، لأن النظر إلى الظروف السائدة عندئذ ينفي هذا الظن تمامًا، ثم بعد الاطلاع على هذا النبأ يستحيل على أي إنسان فيه مسكة من العقل أن يعتبر قيامها صدفة.

إن القرآن الكريم لم يعلن فقط أن الحكومة العربية ستزول لتحل محلها حكومة المسلمين، بل أعلن أن الحكم سينتقل إلى قوم صفتهم (أولاً) أنهم يتمتعون بتقوى الله وخشيته، و(ثانيًا) سينالون شرفًا عظيمًا حتى يعترف به العالم. لا شك أن ظاهرة زوال حكومة ومجيء غيرها ظاهرة مستمرة دومًا، ولكن السؤال: هل تتوافر الصفات المذكورة أعلاه في كل حكومة جديدة؟ ولكن انظروا كيف زالت الحكومة العربية، بحسب هذا النبأ، وحلت محلها حكومة توفرت فيها هذه الصفات تمامًا، حتى إن ألدَّ أعداء الإسلام الذين يطعنون فيه ويسبّون نبيه ﷺ تراهم حين يذكرون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، يُحْنون أعناقهم إجلالاً لهما واعترافًا منهم بما تمتّعا به من ذكاء وفطنة، ونظام وانضباط، وصلاح وتقوى، وتضحية وإيثار.

فهل قيام حكومة كهذه يكون صدفةً ولا سيما بعد أن أنبأ القرآن عن قيامها؟ لقد صرّح الله ﷻ للكفار قبل قيام مثل هذه الدولة بأمد بعيد: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكرُكم أفلا تعقلون﴾(الأنبياء: ١١).. أي فيه ما يحقق لكم الشرف الديني والعز المادي، فلِمَ تعارضونه إذن؟ ولإبراز هذه الصفة القرآنية نفسها سُمّي هذا الوحي بـــ (الذكر) أحيانًا، وهنا في الآية التي نحن بصدد تفسيرها قد أشير أيضًا إلى الأمر نفسه حيث قيل: ما لكم أيها الكفار، تعيّرون رسولي بقولكم: إنك مجنون يا مَن نزَل عليه هذا الكلام العظيم الذي سيكون مدعاة شرف للمؤمنين به. فاعلموا أننا نحن الذين أنزلناه عليه، ولا بد أن نحقق له ولمن آمن به وعدَ الشرف والعزة هذا، لأن هذا الوحي شرعي.. أي أنه يتضمن من الشرائع

والأحكام الجديدة ما لا يمكن العمل به في بداية الأمر إلا إذا تيسر الحكم للمؤمنين به ونالوا رقيًّا ماديا مع رقيهم الروحاني، وأما بدون ذلك فلن يتحقق هذا الكلام ولن يبقى محفوظًا؛ ولذلك لا بد من القضاء على النظام الحالي وتوطيد نظام آخر يستطيع فيه المسلمون العملَ بتعاليم القرآن وبالتالي يحققون المجد والتقوى اللذَين وُعدوا بهما. وهذا المعنى يصبح أكثر جلاءً إذا ما تدبرنا هذه الآية على ضوء قوله ﷻ قبل بضع آيات ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾(الآية: ٥).

هناك مسألة لا بد من توضحيها هنا. لقد بينتُ قبل قليل أن وعد الله للمحافظة على الوحي عام يشمل وحي جميع الأنبياء والمرسلين، والآية التالية أيضًا تؤيد هذا. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: إذا كان هذا صحيحًا فهل وحي الأنبياء السابقين أيضًا لا يزال محفوظًا حفظًا تامًّا؟ وإلا فكيف نصدّق أن وحي القرآن سوف يبقى محفوظًا إلى الأبد؟ لماذا لا نقول بأنه أيضًا سوف يصبح عرضةً للعبث والفساد في وقت من الأوقات كما حدث بوحي الأنبياء الذين خلوا من قبل؟

فالجواب على الجزء الأول من السؤال كامن في كلمات هذه الآية نفسها حيث لم يقل الله تعالى فيها بأنه سيقوم بحماية "القرآن" أو "الكتاب"، وإنما وعد بحماية ﴿الذكر﴾. وهذه الكلمة ضيّقت دائرة الشيء الذي سيتم حفظه، إذ بينت أنه تعالى يتكفل بحماية الوحي ما دام "ذِكرًا".. أي أنه (أولاً): يوطد الصلة بين العبد وربه ويأخذ العبدَ إلى مرتبة حيث يبقى نشوانَ بذكر الله تعالى؛ و(ثانيًا): ويُبوِّئ العبدَ مقامًا بحيث يذكره الله أيضًا.. أي يشرفه دائمًا بوحيه وتأييده ونصرته. فالوحي الذي يبقى حاملا لهذه المواصفات سوف يتولى الله ﷻ حمايته، وإلا فيتخلى عن حفظه. والبديهي أن أي وحي سيبقى متصفًا بهذه الصفات طالما يراه الله صالحًا للعمل به، وحينما يعتبره الله ﷻ قاصرًا عن سد حاجات العصر الجديدة سوف يتخلى عن حمايته، ليأتي مكانه بوحي جديد يكون ملائمًا وملبيًا

لحاجات العصر التي لم يستطع الوحي السابق تلبيتَها. وحين يصبح أيُّ وحيٍ قاصرًا عن سد الحاجات التي أنزله الله لأجلها لا يبقى أي داع لحفظه، وعندما تُرفع عنه الحماية الإلهية يجد الأشرار الفرصة سانحة للتحريف والعبث به.

فالخلاصة أنه لا وجه للاعتراض على تطرق الفساد إلى وحي الأنبياء السابقين، رغم الوعد الإلهي بحفظ وحي كل نبي، لأن القرآن الكريم وضّح بكلمة (الذكر) أن وحيهم تمتع بالحماية الإلهية ما دام (ذِكرًا)، وحين لم يعد (ذِكرًا) نُزع منه وعد الحماية. وكون وحيهم لم يعد (ذِكرًا) أمر لا غبار عليه، ويمكن لكل واحد منا أن يختبر ذلك في عصرنا هذا على الأقل، إذ ليس ثمة بين سائر الديانات أي ديانة سوى الإسلام تدعي بوجود شخص بين أتباعها يمكن اعتباره دليلا عمليًّا على كون كتابها (الذِّكرَ).. أعني أنه لا يوجد بينهم من يعلن أنه استطاع بالعمل بكتاب دينه أن ينال قرب الله تعالى بحيث إن الله ﷻ يذكره.. أي يشرّفه بكلامه ويُري له الخوارق من قدرته. فما دامت تلك الكتب قد فقدت عمليًّا ميزةَ كونها (الذِّكر) فلم تعد ثمة حاجة لحمايتها، ولا داعي لعائق سماوي يحول دون وصول أيدي المحرفين إليها.

والجزء الثاني من السؤال يقول: كيف نصدّق إذًا أن وحي القرآن سوف يبقى محفوظًا إلى الأبد؟ لماذا لا نقول بأنه أيضًا سوف يصبح عرضةً للعبث والفساد في وقت من الأوقات، كما حدث بوحي الأنبياء الذين خلوا من قبل؟ وجوابه هو أن القرآن لا يزال يتمتع إلى يومنا هذا بميزة (الذكر)، إذ بوسع الإنسان اليوم أيضًا أن يصل إلى ربه ﷻ عاملا بتعاليم القرآن. فبما أنه لا ينفك يلبي الحاجة التي نزل من أجلها لذلك لم يخرج عن الحماية الإلهية، فلا أحد يستطيع أن يتجاسر على العبث والتلاعب به.

أما السؤال: كيف نوقن أنه سيظل يتمتع بهذه الحماية في المستقبل كذلك، فجوابه الأول هو أنه لم يطرأ على القرآن أي تغيير ولا تبديل إلى يومنا هذا؛ وثانيًا هناك أنباء في القرآن تعلن بأنه كلما تغافل المسلمون عن العمل به سوف

يبعث الله ﷻ بينهم من يأخذهم مرة أخرى إلى القرآن. فهذا الوعد يجعلنا نوقن بأنه سيظل يسد حاجات كل عصر إلى الأبد، ولن يقبل النسخَ أبدًا، وبالتالي سيحظى دائمًا بالحماية الإلهية، إذ لا أحد من الحكماء يسمح بضياع ما ينفعه، والله أحكم الحكماء سبحانه وتعالى.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

شِيَع: جمعُ شِيعة. شيعة الرجل: أتباعُه وأنصاره(الأقرب). وقال الفرّاء في ﴿شِيَعِ الأولين﴾: هو من إضافة الشيء إلى صفته (البحر المحيط).

التفسير: لقد سمّى الله تعالى هنا كل جماعة من الناس شيعًا، وفي هذا دحضٌ للذين يقولون إننا أحرار، ولا ننتمي إلى أية طائفة. الحق أنهم ليسوا في الواقع أحرارًا، كما أنهم لا يعتبرون أنفسهم أحرارًا، وإنما يقولون هذا كيدًا ومكرًا حتى يستمروا في الطعن في الآخرين دون أن يعترض عليهم أحد. فالله تعالى يعلن هنا أن هذا ادعاء باطل كليةً. لا أحد يكون حرًّا، بل لا بد لكل إنسان من أن يتبع أحدًا من الناس أو ينتمي إلى طائفة من الطوائف، سواء على صعيد الدين أو التقاليد أو الفلسفة. ذلك أن الإنسان يواجه الكثير من الأمور بحيث يستحيل عليه أن يتحرى عن كل واحد منها، ولذلك لا بد أن يقتنع إلى حد ما بأفكار الآخرين الذين يحسن الظن بهم. يقول علماء النفس إن التقليد هو أبرز سمة في النفس البشرية، وهذا ما يؤكده الله بقوله ﴿ولقد أرسلنا من قَبلك في شِيَعِ الأولين﴾.. أي لقد بعثنا الرسل من قبلك في شتى المجموعات البشرية التي كانت متحدة بسبب من الأسباب.

أما علاقة هذه الآية بما قبلها فهي أن الله تعالى قد أوضح هنا أنه بعث الرسل في الذين خلوا من قبل، وأنه حافظ على تعاليمهم أيضًا، كذلك سوف يقوم

بحماية تعليم هذا الرسول. مع العلم أن هذه الحماية تكون نصًّا وروحًا، وتتم في عصر الأنبياء المشرّعين – بالإضافة إلى أسباب أخرى – حيث يمنح الله تعالى أتباعَهم الحكمَ في عهدهم، فيبيّنون المفهوم الحقيقي لشرائعهم بتطبيقهم إياها بأنفسهم. أما الأنبياء غير المشرّعين فيهب الله لأتباعهم أيضًا الغلبة لكي ترى الدنيا الثمارَ العملية لتعاليمهم، ولكن ليس من الضروري أن ينالوا الحُكم على الفور.

الغريب أن معارضي الأنبياء يرفضون دائمًا العمل بهذا الطريق السهل الذي لا بد أن يساعدهم على معرفة الحق بشكل يقيني، وهو أن يقيسوا دعوى المدعي على منهاج النبوة، أي على أحوال الأنبياء السابقين. ولو أنهم قاسوا دعواه بهذا الطريق لعرفوا صدقه أو كذبه على الفور. ولكن المؤسف أن هذا هو ما يُعرضون عنه دومًا، مما يدل على أنهم لا يبحثون عن الحق، وإنما يريدون خلط الأمور هروبًا من قبول الحق.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٢﴾

التفسير: الاستهزاء هو الضحك على أحد بغيةَ التحقير.

ولهذه الآية علاقة بقولهم الساخر ﴿يا أيها الذي نُـــزِّلَ عليه الذكرُ﴾ حيث نبه الله تعالى الكفار هنا أن سخريتهم بهذا النبي ليست ببدعة جديدة، بل إن الأنبياء الذين يؤمنون بهم تعرضوا لسخرية القوم أيضًا.

كما أخبر ﷻ هنا أنه يَعِدُ كلَّ نبي بحماية وحيه وتعليمه، وهذا ما يثير العجب لدى الكفار إذ يقولون: كيف يمكن أن يُكتب لتعليمه البقاء بالرغم من معارضتنا إياه؟

إنه لغريب حقًّا أنه ما من رسول إلا وقد استُهزئ به، ومع ذلك كلما يُبعث نبي جديد يقول الناس: لم لم يُعطَ هذا العظمةَ والقوة بشكل غير عادي. تُرى لو

أن الرسل السابقين قد بُعثوا بعظمة وقوة كيف كان ممكنًا للناس أن يجعلوهم عرضة للاستهزاء والسخرية؟

كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

نسلُكه: سلَك المكان سَلْكًا وسلوكًا: دخل فيه. سلك الطريقَ أي دخله وسار فيه متبعًا إياه، فهو سالكٌ. سلَك الشيءَ في الشيء: أدخلَه فيه كما تُسلَك اليد في الجيب والخيطُ في الإبرة، وفي القرآن ﴿سلكناه في قلوب المجرمين﴾. سلَك فلانًا المكانَ: أدخله (الأقرب).

المجرمين: جرَم يجرُم جَرْمًا: قطَع، ومنه: جرَم النخلَ جَرْمًا إذا صرَمه. جرَم زيدٌ: أذنبَ. جرَم على قومه وإليهم: جنى جنايةً. جرَم لأهله: كسب، ومنه في القرآن ﴿لا يجرِمنّكم شَنَآنُ قومٍ على ألا تعدلوا﴾ أي لا يكسبنّكم، وفُسّر أيضًا بـــ لا يحملنّكم. أجرمَ: أذنبَ؛ عظُم جرمُه. أجرم عليهم: جنى (الأقرب).

لقد تبين من كل هذه الأمثلة أن المعنى الأصلي للجرم هو القطع. فبما أن الذنب يقطع صلة الإنسان عن الله تعالى وعن الناس، فلذلك يسمَّى في الشرع الإسلامي بالجُرم. وليس الذنب إلا ما يقطع صلة مرتكبه عن الله أو يفسد ما بينه وبين الأناس الآخرين. فالمجرم هو من صار مقطوع الصلة عن الله وعن الناس.

التفسير: هناك اختلاف بين المفسرين في تعيين مرجع ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿نسلُكه﴾؛ فأرجعه بعضهم إلى عدم إيمانهم المذكور في الآية التالية، بينما قال البعض الآخر إنه يعود إلى عادة الاستهزاء (مجمع البيان). وأرى أن الرأي الثاني هو الصواب.

وبقوله تعالى ﴿كذلك نَسلُكه في قلوب المجرِمين﴾ نبّه إلى أن الإنسان عندما يرتكب سيئة تقلّ كراهيتُه تجاه السيئات بالتدريج، وتزداد رغبتُه في الآثام حتى يصبح قلبه مشغوفًا بها.

تؤكد هذه الآية أن الله تعالى لا يجبر أحدًا على الإثم، وإنما يرتّب النتائج الطبيعية على جريمته، وليس الله مسئولاً عن الإثم، بل الآثمُ نفسُه.

لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

سنة: السنة: السيرةُ؛ الطريقةُ؛ الطبيعةُ (الأقرب).

التفسير: أي أن عادة الاستهزاء تؤدي إلى قسوة القلب، وبالتالي يُحرَم المستهزئ من الإيمان رغم رؤية الآيات الواضحة ومعرفة البراهين القطعية. هذا ما حدث بالأمم الغابرة، وهذا ما سيحدث مع هؤلاء أيضًا. تُرى من الذي نال الهدى بالاستهزاء حتى يهتدي هؤلاء المستهزئون؟

وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٥﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

يعرجون: عرَج الرجلُ في الدرجة والسُّلّم يعرج عروجًا: ارتقى. وعُرج به: صُعد به (الأقرب).

سُكِّرتْ: سكَر الإناءَ يسكُر سَكرًا: ملأَه. سكرت الريحُ: سكنت بعد الهبوب. سكرت عينه: تحيّرت وسكنت عن النظر. وسكَر البابَ: سده. وسكِّرت أبصارنا أي حُبست وحُيّرت (الأقرب).

أبصارنا: البصر: حاسّةُ الرؤية؛ العينُ؛ العلمُ (الأقرب)

مسحورون: سحَره يسحَر سِحرًا: عمِل له السحرَ وخدَعه. وسحر عنه: تَبَاعَدَ. وسحر فلانًا عن الأمر: صرفه. وسحره بكلامه وألحاظه: استماله وسلب لبَّه. وسحر المطرُ الطينَ والترابَ سحرًا: أفسده فلم يصلح للعمل. المسحور أيضًا المفسد من الطعام والمكان لكثرة المطر أو من قلة الكلأ (الأقرب).

التفسير: لقد طالب الكفار من قبل: ﴿لوما تأتينا بالملائكة إنْ كنتَ من الصادقين﴾.. أي إذا لم يكن محمد ﷺ مجنونًا وإذا لم يكن نزول الملائكة وهمًا منه.. فلنَرَها نازلةً عليه. فكان ردُّ الله عليهم: (أولاً) إن الملائكة إنما تنـــزل على الإنسان بحسب ما يستحقه من رحمة أو عذاب، وما دمتم تستوجبون العذاب فلن تنـــزل عليكم إلا ملائكة العذاب الذي يدمركم؛ فكيف تنتفعون إذًا من نزولها بعد الهلاك. و(ثانيًا): إذا كنتم تتعجبون من نزول الملائكة عليه، فاعلموا أننا سوف نأتي بأنفسنا لحماية الوحي النازل عليه، لأننا نحن الذين أنزلناه عليه، ونحن أول المسؤولين عن حفظه وحمايته. وما دمنا قد قمنا بهذه المسئولية في زمن الأنبياء السابقين فما الذي يمنعنا الآن من القيام بها. و(ثالثًا): ليس استهزاؤكم بالأمر الغريب، إذ لم يزل معارضو جميع الرسل السابقين يستهزئون بهم، حتى صار الاستهزاء بمثابة غذاء لهم يتلذذون به وهم غافلون، حتى حُرموا من الإيمان. وهذا هو المصير الذي ينتظركم أيضًا.

ويرد الله ﷻ هنا على هؤلاء المعترضين بأسلوب آخر فيقول: هل تعتقدون أن كل إنسان قادرٌ على فهم الأمور كلها؟ كلا، بل إنه ما لم يكن الشيء ملائمًا لمزاج الإنسان ولمستوى كفاءاته فلن يستطيع إدراكه. وهناك بون شاسع بينكم وبين العلوم الإلهية الروحانية بحيث لو أُريتم ما يراه محمد من تجليات ومشاهد، وحتى لو عُرج بكم إلى المدارج الروحانية العليا.. فلن تصدّقوها، بل ستقولون: إنما هو سحر قد سُحرتْ به عيوننا، ولذلك نرى هذه المشاهد العجيبة الغريبة.

ونظرًا إلى هذا المعنى فإن فتح باب من السماء يعني هنا الكشوف الروحانية، بينما يعني العروج في السماء الاطلاع على بعض المدارج الروحانية.

ولو قيل: كيف يمكن أن يُحرَم من الإيمان مَن يُفتح عليه باب من السماء؟ فالجواب هو أن قوله تعالى ﴿بابًا من السماء﴾ ينطوي على إشارة إلى أن مثل هذا الشخص لا يُمنح العلوم السماوية بشكل كامل، ولا تنكشف عليه طرق المعرفة الكاملة، بل يُعرَض عليه – بسبب إنكاره – شيءٌ منها كنموذج وعينة فحسب؛ والبديهي أن الإنسان لا يستفيد من المثال والعينة فقط ما لم يكن في قلبه رغبة صادقة للانتفاع به. فما يراه هؤلاء المكابرون سيُقيم الحجة عليهم فحسب، ولن يؤدي إلى إيمانهم.

إنه من الحقائق الثابتة أن العديد من منكري الرسل يشترطون لإيمانهم رؤية آية من الآيات كرؤيا أو إلهام وغيرهما، ولكن حين يرونها يتهربون بشتى الأعذار. فتارةً يؤوّلونها تأويلاً خاطئًا، وتارة أخرى يقولون: ما قيمة الرؤيا والإلهام، إنْ هي إلا أوهام! وهكذا فلا ينتفعون من الآيات. وليس ذلك إلا لأن قلوبهم خالية من خشية الله تعالى. وإلى هذه الحالة القلبية الفاسدة تشير الآية التي نحن بصدد تفسيرها محذرةً أنه لا بد للإيمان من إصلاح القلب وصدق النية، إذ لا يوفَّق للإيمان إلا من كان قلبه عامرا بخشية الله، أما بدون ذلك فيلوذ بشتى الأعذار الواهية خداعًا لنفسه، ويبقى محرومًا من الإيمان، ولو رأى آلافًا من الملائكة.

وقد تعني الآية أنه عندما ينـــزل عليهم العذاب تتولد فيهم الخشية، فيقولون: لو زال عنا العذاب لآمنّا، وعندما يزول عنهم يعودون لسيرتهم الأولى؛ وذلك كما فعل فرعون بحسب بيان القرآن الكريم. ونظرًا إلى هذا المعنى فالمراد من قوله تعالى: ﴿ولو فتَحنا عليهم بابًا من السماء﴾ هو فتح باب الرحمة ورفعُ العذاب وتأجيله، وسيعني قوله ﴿لَظلّوا فيه يعرُجون﴾ انهماكَهم مرة أخرى في جلب المتع المادية فقط. ومما يؤيد هذا المعنى هو الحديث عن العذاب فيما سبق في قوله تعالى ﴿وما كانوا إذًا منظَرين﴾(الآية: ٩). فالمراد من الآية التي نحن بصدد تفسيرها هو

أن قلوبكم قد تحجرت لدرجة أنكم ستتندّمون عند حلول العذاب، ولكن حين يزول عنكم ستعودون إلى الكفر والإنكار ثانية.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٧﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

استرقَ: افتعال من سرَقه ومنه الشيءَ: أخذه خفيةً من حِرْزٍ. والسرقة أخذُ الشيء في خفاء وحيلة. واسترقَ السمعَ: استمع مستخفيًا. واسترقَ الكاتبُ بعضَ المحاسبة: لم يُبرزه. (الأقرب)

السمع: سمِع الصوتَ يسمَع سمعًا: أدركه بحاسة الأذن. السمع: حسُّ الأذن؛ ما ولَج فيها من شيء تسمع؛ الذِّكر المسموع. ويكون للواحد والجمع، لأنه في الأصل مصدر فيحتمل القلةَ والكثرةَ بلفظ واحد، وجمعه أسماع (الأقرب).

السمع: قوةٌ في الأذن به يُدرك الأصوات، وفعلُه يقال له السمعُ أيضًا. ويعبَّر تارةً بالسمع عن الأذن نحو: ختَم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وتارةً عن فعله كالسَّماع نحو: إنهم عن السمع لمعزولون، وتارةً عن الفهم كقولهم: لم تسمع ما قلت، وتارةً عن الطاعة (المفردات).

أَتبعَه: تبِع الشيءَ: سار في أثره. وتبِعه: مشى خلفَه، أو مر به فمضى معه. وأتبعه: تبِعه وذلك إذا كان سبَقه فلحقه (الأقرب).

شهاب: شعلة من نار ساطعة، أو كل مضيء متولد من النار؛ ما يُرى كأنه كوكب انقضَّ؛ وقد يُطلَق على الكوكب أو الدراري من الكواكب لشدة

لمعانها. ويقال إن فلانًا شهابُ حرب، إذا كان ماضيًا فيها. وتُطلَق الشهبُ على ثلاث ليال من الشهر وهي الليالي البِيض (الأقرب).

فالشهاب يُطلَق مجازًا على الأشياء المضيئة، وكذلك على الناس النشيطين الماضين في الأعمال.

وجاء في المفردات: الشِّهاب: الشعلةُ الساطعة مِن النار الموقدة، ومِن العارض في الجو.

التفسير: البروج التي مفردها برج تعني - كما ورد في القواميس - منازل النجوم أي المدارات التي تتحرك فيها هذه الأجرام. كما تعني أيضًا القصور والقلاع. ولكن بعض المفسرين بما فيهم قتادة قالوا أن "البروج" هنا بمعنى الكواكب (البحر المحيط، الدر المنثور، وابن كثير). وقد أيد الإمام اللغوي الزجّاج هذا الرأيَ (تاج العروس). ودليل المفسرين هو قول الله تعالى في مكان آخر: ﴿إنّا زيّنّا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكبِ﴾(الصافات: ٧).

ولكن استدلالهم هذا من قوله تعالى ﴿إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكبِ﴾ ليس مما يمكن الجزم به، إذ قد يكون قوله تعالى ﴿وزيّنّاها للناظرين﴾ حول موضوع آخر، وهو أننا قد جعلنا في السماء منازل كما جعلنا فيها النجوم التي تتحرك في هذه المنازل والتي تتسبب في زينة السماء. فما دمنا لا نستطيع الجزم بأن البروج هي سبب الزينة، فليس هناك ما يدفع إلى أخذ البروج بمعنى الكواكب.

على أية حال، فسواء أخذوا البروج بمعناها المتعارف وهو منازل النجوم أم بمعنى النجوم نفسها فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: ما هي العلاقة بين حماية القرآن أو الأسفار السابقة وبين حفظ السماوات، ولماذا أردف الله موضوعَ حفظ الوحي بذكر حفظ السماء؟

إن آراء المفسرين في هذا الشأن متضاربة، وبعضها لا يخرج عن كونه قصصًا وأساطير لا يقوم عليها دليل، ولا علاقة لها مطلقًا بكلام الله تعالى. وسوف أعلّق عليها وعلى الروايات الأخرى الواردة في هذا الصدد بعد قليل، أما الآن فأود بيان ما فهمتُه من هذه الآيات في ضوء السياق القرآني.

نعرف من دراسة القرآن الكريم أنه يؤكد بكل قوة وجودَ مماثلة كبيرة بين النظام المادي البادي لأنظارنا وبين النظام الروحاني، ولذلك لا ينفك يسوق أمثلة من العالم المادي لشرح العالم الروحاني. فتارةً يشبّه الوحيَ بالماء لبيان التشابه بين تأثيراتهما، وتارةً أخرى يتحدث عما يوجد بين السماء والأرض من صلات ليسلّط الضوء على العلاقة الموجودة بين الجسم والروح، وحينًا يستدل بالعلاقة الموجودة بين الضوء والعين على أن الحق وحده لا ينفع أحدًا بدون أن يستغل القدراتِ الكامنة في النفس البشرية. وبالاختصار.. فإن القرآن ينبّهنا مرة بعد أخرى لتلقّي الدروس الروحانية من ظواهر العالم المادي. وفي هذه الآية أيضًا يلفت أنظارنا إلى مماثلة كهذه.

إن أهل الأرض يرون فوق رؤوسهم سماء فيها الكواكب التي تعمل بحسب نظام المواعيد والمنازل المحددة لها. وليس هنا من قوة تستطيع تبديل هذا النظام، لأن الله ﷻ قد تولى حفظه. وقد ضُرب مثال نظام السماء المادية هذا في القرآن مرة بعد أخرى تدليلا على نظام السماء الروحانية. وأرى أن هذه الآية أيضًا تشير إلى الأمر نفسه.. حيث يوضح الله تعالى أن نظام السماء الروحانية قائم على أسس متينة شأن نظام السماء المادية، كما أنه مقسوم مثله إلى عدة طبقات، وأن الطبقات العليا من السماء الروحانية محفوظة بطبيعة الحال من وصول أيدي العابثين إليها، وأما الطبقة الدنيا منها فهناك احتمال للعبث بها، فحفظناها بتزيينها بالنجوم. أي كما أن الطبقة الدنيا من السماء المادية عبارة عن نظام وعن أجرام تابعة له وحامية له.. كذلك الحال بالنسبة للطبقة الدنيا من السماء الروحانية.. فإنها أيضًا عبارة عن نظام وعدة نجوم تابعة له وحامية له. وكما أن السماء المادية

قائمة بسبب النجوم المادية ..كذلك فإن السماء الروحانية قائمة بسبب النجوم الروحانية، بل وكما أن السماء المادية الدنيا لا تعني إلا مجموعة نجوم وهي التي تزينها.. كذلك فإن السماء الروحانية الدنيا لا تعني إلا مجموعة نجوم روحانية وهي التي تزينها. ثم كما أن النجوم المادية وسيلة لحماية السماء المادية الدنيا، إذ هي جزء منها وفسادها يعني فساد نظام تلك السماء.. كذلك فإن النجوم الروحانية سبب لحماية السماء الروحانية الدنيا، وفسادها يعني فساد تلك السماء، ولذلك حين ينوي أحد أن يفسد فيها فإن الله تعالى يرجمه بالأحجار والنار.. كما تشير إلى ذلك كلمتا (رجيم) و(شهاب).

وقد استعمل القرآن الكريم النارَ والأحجارَ بمعنى العذاب السماوي بكثرة، فقال ﴿فاتقوا النارَ التي وقودها الناس والحجارة أُعدّتْ للكافرين﴾(البقرة: ٢٥).. أي أن السبب الروحاني لإشعال تلك النار هم الآثمون من الناس، وأما السبب المادي لها فهي الأحجار المادية من صنم ووثن. كذلك عبّر هنا عن عذاب هؤلاء المفسدين في السماء الروحانية بكلمتي ﴿رجيم﴾ و﴿شهاب﴾.

والآن أسوق الأدلة على أن القرآن الكريم قد شبه العالم المادي بالعالم الروحاني. يقول الله ﷻ ﴿يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾(الأحزاب: ٤٦-٤٧).. ومعنى السراج المنير هو الشمس المشرقة. وكما هو بيّنٌ من الآيات الأخرى فإن النبي ﷺ هو بمثابة المركز لنظام النبوة شأنَ الشمس التي تُعتبر مركزا لنظامنا الشمسي. فقد نبّه الله ﷻ بتسمية النبي ﷺ بالشمس إلى وجود نجوم وأقمار أخرى تدور حوله في السماء الروحانية، وهذه النجوم والأقمار هم الأنبياء والرسل الآخرون الذين كانت نبواتهم إرهاصًا وتمهيدًا لبعثه ﷺ، والذين يطوفون حول الشمس المحمدية.

وكما أن النبي ﷺ كان بمثابة شمس في السماء الروحانية الكونية نجومها الأنبياء الآخرون، كذلك كان ﷺ شمسَ سماءٍ أخرى هي أصغر من الأولى، وكان صحابتُه هم النجوم فيها، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: "أصحابي

كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم" (المشكاة: الآداب، باب مناقب الصحابة). أي أن أصحابي هم بمنـــزلة النجوم حول الشمس، وكما أن النجوم تهدي الناس ما دامت مرتبطةً بنظامها الشمسي، كذلك فإن أصحابي الذين سيظلون مرتبطين بنظامي سيعملون لكم عمل النجوم، وستهتدون باتباع أي واحد منهم، رغم الاختلاف الهامشي فيما بينهم.

ومما يؤكد أن النظام الروحاني قد شُبّه في لغة الوحي بالنظام الشمسي ما رآه سيدنا يوسف عليه السلام في رؤياه حيث جاء ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أَبَتِ إني رأيتُ أَحَدَ عَشَرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين﴾(يوسف:٥). ثم ذكر القرآن تعبير هذه الرؤيا كالآتي: ﴿ورفَع أَبَوَيه على العرشِ وخَرُّوا له سُجَّدًا وقال يا أَبَتِ هذا تأويلُ رُؤياي مِن قبلُ قد جعَلها ربي حقًّا وقد أحسَنَ بي إذ أخرَجَني مِن السجنِ وجاء بكم مِن البَدْوِ مِن بعد أن نزَغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي إن ربي لطيفٌ لما يشاءُ إنه هو العليمُ الحكيمُ﴾(يوسف:١٠١). هذه الرؤيا، مع تعبيرها الذي بيّنه القرآن، توضح جليًّا أن النظام العائلي أو الديني يشبَّه بالنظام الشمسي في لغة الوحي. وهذا هو المراد عندي من الآية التي هي قيد التفسير.

بعد هذا الكلام التمهيدي أقول: حين أكد الله عز وجل حمايته لما أنـــزله على رسوله من الوحي، أتبَعَه بتمثيل النظام الشمسي.. ليبين لنا كيف ستتم حمايته. فقال: كما ترون هناك في العالم المادي سماءً أي مجموعة من النجوم.. كذلك توجد في العالم الروحاني مجموعة من النجوم وهي الأنبياء. وكما أن النجم يشكل في حد ذاته زينةً للسماء المادية، وسببًا لحمايتها عبر قانون الجاذبية وغيره من النواميس التي لم يطلع عليها البشر بعد.. كذلك فإن كل نبي هو زينة للسماء الروحانية وسببٌ لحمايتها. فما من نبي إلا وقد جاء عند الحاجة، وفي الموعد المناسب، وبغاية معينة ما كانت لتتحقق إلا بمجيئه؛ وقد ساهم في حماية السماء الروحانية، عاملاً على نشر كلام الله تعالى، وموضّحًا بشخصه وبأتباعه حقيقةَ الوحي وفضلَه وتأثيره، وهَزَمَ أعوان الشيطان الذين أرادوا أن يفسدوا كلام الله وأذلّهم وأخزاهم؛ وكأنه سقط عليهم كالنار والأحجار.

هذا، وقد أخبر الله تعالى في هذه الآية أيضًا أنه مما لا شك فيه أن الشياطين أي أهل السوء.. يملكون في العالم المادي بعض التصرف والسلطة في الأرض، ولكن لا سلطة لهم في السماء؛ فتجدونهم في الأرض يفسدون ويظلمون أهلها ويستولون على نعمها وخيراتها، بيد أنهم لا يقدرون على حرمان الناس من النعم التي تنـــزل من السماء من هواءٍ وضوءٍ وتأثير للأجرام، كما لا سلطة لهم في السماء ولا تصرف لهم في شمسها وقمرها ونجومها. كذلك الحال في العالم الروحاني، إذ لا سلطة ولا تأثير للشياطين على الأنبياء وأتباعهم الكاملين، وهذا ما أكده الله ﷻ في موضع آخر في هذه السورة نفسها بقوله ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾(الحجر: ٤٣). كما أنه من المستحيل أن يتصرفوا فيما ينـــزل من السماء الروحانية من بركات كالوحي والآيات والمعجزات، بل يصون الله ﷻ السماءَ الروحانية أي الأنبياءَ وتأثيراتهم من تدخُّل الشياطين كليةً. وكأن هذه الآية شرح لقوله تعالى ﴿إنا نحن نـــزلنا الذكرَ وإنا له لحافظون﴾.

الغريب أنه – بالرغم من هذه الآية القرآنية الصريحة – لا زال بين المسلمين من يعتقد أنه لم ينجُ أحد من مس الشيطان إلا عيسى وأمه مريم! (القرطبي، تحت الآية: وإني أعيذها بك وذريتَها...)؛ مع أن الله تعالى يعلن هنا حماية السماء الروحانية التي تشمل جميعَ الأنبياء والرسل من آدم إلى رسولنا الكريم – عليهم السلام – وأتباعَهم الكاملين.

وتقول الآية التالية: ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾.. وهي أيضًا تؤكد أن الله تعالى إنما يتحدث هنا عن السماء والنظام الشمسي على سبيل التمثيل لا على وجه الحقيقة، إذ لا علاقة بين السماء المادية وبين استماع الكلام سرًّا وخفيةً؛ كما لا وجهَ لورود كلمة الشهاب هنا موصوفة بصفة (مبين)، لو كان المقصود شهابًا ماديا، لأن الشهاب لغةً: "هو شعلة من نار ساطعة؛ أو كلّ مضيء متولد من النار وما يُرى كأنه كوكب انقضّ". ووصف هذين الشيئين بصفة المبين هنا غير مستساغ وفي غير محله لو أخذنا الكلام على ظاهره.

ولكن لو اعتبرنا (السماء) سماء روحانية وأخذنا (الشهاب) بمعنى النبي الذي يأتي مؤيَّدًا من السماء بالآيات البينة، ويكشف زيف الذين يريدون العبث بكلام الله تعالى.. لوجدنا صفة (مبين) ملائمة جدًّا في هذا السياق، لأن الشهاب المبين يعني عندئذ الآية البينة، وسيكون مفهوم هذه الآية أن الوحي الإلهي يكون مصونًا ومحفوظًا تمامًا ما دام في السماء أو حينما ينـــزل على أجرام السماء الروحانية.. أي الأنبياء.. ولكن بعد أن ينـــزل إلى السماء الدنيا ويُعرَض على البشر، ويخرج من غطاء الغيب إلى حيز الحاضر المشهود، ويصير كلامًا مسموعًا تتناقله ألسنةُ الناس.. فإن الشياطين أي أعداءُ الأنبياء يسرقونه.. بمعنى أنهم يتلقونه بغير حق أي يأخذونه مأخذاً غير حقيقي ويحرّفونه، فعندئذ ينـــزل عليهم العذاب بواسطة الأنبياء عقابًا على جريمتهم، أو أن الأنبياء وأتباعهم يكشفون زيف هؤلاء أمام الدنيا بتوضيح المراد الحقيقي من الوحي، فيقعون في عذاب مهين حينما يفضحهم نور الحقيقة ويهتك سترهم.

فالمراد من سرقة الكلام هنا أن هؤلاء يأخذون وحي الله بغير حق شأن السارق الذي يأخذ مال غيره بدون حق.. بمعنى أنهم لا يتلقونه بقصد فهمه والإيمان به، بل ليسيئوا استخدامه، ويحرّفوه ليصدّوا الناس عن الحق.

ومن معاني سرقة الوحي أيضًا أن المعارضين يختارون بعض تعاليم الأنبياء ويعزونها إلى أنفسهم إيهامًا للناس أنهم أيضًا قادرون على الإتيان بمثل تلك المعارف والعلوم، بل إنهم يتهمون الأنبياء أنهم هم الذين قاموا بسرقة تعاليمهم هم. ولكن كما أن الثوب المسروق يُعرف على الفور إذ لا ينسجم تمامًا مع جسم السارق.. كذلك فإن ما يسرقونه من تعاليم الأنبياء لا يتفق مع معتقداتهم الأخرى الخاطئة، وحينما يكشف الأنبياء وأتباعهم حقيقة الأمر يُفتضح هؤلاء أمام الناس.

ولطالما تعرضت تعاليم الأنبياء إلى السرقة بنوعيها المذكورَين أعلاه. فانتقى الناس أفضل تعاليم الأنبياء وحاولوا تقديمها إلى الدنيا على أنها من عندهم،

ساعين الحطَّ من شأن الأنبياء وعظمتهم. وكان تعليم الرسول الكريم ﷺ أكثر عرضةً لهذه الحملة الشعواء من تعاليم الأنبياء الآخرين. فكم من مرة يحاول الكتّاب المسيحيون والآريون الهندوس عرضَ تعاليم القرآن على الناس بصورة مبتورة ليُثبتوا أنها مسروقة من كتبهم السماوية، ولكنهم يرون خيبة الآمال ويُفتضحون حينما نكشف لهم النور الذي أتى به نبينا الكريم ﷺ، ونُثبت لهم أن ما يعترضون عليه هو حلقة من سلسلة طويلة من المعارف القرآنية الواسعة الكثيرة التي لم تخطر لهم على بال حتى في الحلم. وكان صاحب "ينابيع الإسلام" المسيحي أحد هؤلاء المهاجمين الشرسين إذ اختطف بكل جسارة ووقاحة كثيرًا من المعارف القرآنية، لكي يُثبت للناس أنها مسروقة من كتب الديانات السابقة. والحق أن تلك المعارف أُخذت مبتورةً عن السياق، وكانت جزءًا من كلٍّ لا يمكن أن يتجزأ، وحلقاتٍ منسلكة في سلسلة لا يمكن فكُّها منها وتركيبها في شيء آخر. ومن أراد التأكد من قولي فليرجع إلى تفسيري لسورة "الفاتحة" حيث فصّلتُ معارف البسملة التي يزعم صاحب "ينابيع الإسلام" أنها مسروقة من الكتب الزرادشتية. (انظر ينابيع الإسلام: الفصل الخامس ص ٢١٩)

والنوع الثاني من سرقة الوحي، كما بينت من قبل، هو أن المعارضين يختطفون منه أجزاء مبتورة عن السياق ليَعرضوها على الدنيا بمفهوم محرَّف معاكس للمراد تمامًا.. وقد تعرض له أيضًا وحي سائر الأنبياء. فما من نبي إلا وعرض الأعداء وحيه على الناس بصورة مشوهة محرفة، ليثيروا مشاعر القوم ضده. يختطفون وحيه كاللصوص وينشرونه بين الناس بمفهوم محرف فاسد، إلى أن يأتي الله ﷻ لنصرة نبيه بالآيات البينة والمعجزات الخارقة، فيبطل مطاعن المعترضين بالبراهين الساطعة، ومن جهة أخرى يؤيد رسوله بالآيات الدالة على قدرته وقهره، فيُهلك الأعداء ويحمي كلامه ﷻ.

وأحيانًا ينحرف أتباع النبي أنفسهم عن دينه وتسُودهم اللادينية، فيُفسدون الدين الأصلي.. حيث يحرّفون معاني ما نزل على نبيهم من كلام الله تعالى،

ويُخفون محاسنه تحت غبار التفاسير الخاطئة. وحينئذ ينـــزل أحد من أتباع النبي كـــ"شهاب ثاقب" أو "شهاب مبين" من السماء الروحانية مشرَّفًا بالوحي ومؤيَّدًا بالآيات البينات، لكي يُهلك هؤلاء الشياطينَ، ويعيد الأمور إلى نصابها؛ فيعود بالوحي السابق إلى مقامه الأصلي؛ وهكذا يحمي الله ﷻ كلامه الذي أصبح عرضةً للضياع والتحريف، ويكشف للدنيا مفاهيمه الحقيقية ثانيةً.

يتضح مما سبق بيانه أن المراد من النجوم في هذه الآيات هم الأنبياء، وأن الشهاب المبين أو الشهاب الثاقب هو نبي العصر الذي يقع فيه التحريف. ذلك أن كل نبي نجمٌ روحاني لا يزال يتسبب في زينة السماء الروحانية، ولكن لا يبقى كل نبي بعد وفاته شهابًا، أي سببًا في هلاك الشياطين الذين يعيثون فسادًا في حديقة الدين، وإنما يقوم بهذا الواجب النبيُّ الموجود في عصر التحريف، أو النبيُّ الذي لا تزال نبوته بعد وفاته حيةً جاريةً وشريعته ساريةً صالحةً للعمل، فلو بُعث في أمته نبي آخر تابع له عند تطرق الفساد إلى تعاليمه فإنه يبقى مع ذلك "شهابًا"، لأن قوته القدسية لا تبرح عاملة عبر النبي التابع له. وبناء على هذا الشرح فإن موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء السابقين – عليهم السلام – لا يزالون نجومَ السماء الروحانية، ولكنهم ليسوا الآن شُهُبًا، لأن الله تعالى لا يستخدمهم اليوم لإهلاك الشياطين، غير أن محمدًا رسول الله ﷺ لا يزال شِهابًا، لأن أظلاله ونوّابه من أتباعه سوف يستمرون في إسداء هذه الخدمة تجاه القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فخلاصة القول: إن هذه الآيات شرح وتفصيل لقوله تعالى ﴿إنا نحن نـــزّلنا الذكرَ وإنا له لحافظون﴾.. حيث فصّل الله فيها كيف إنه يقوم بحماية كل وحي يستحق أن يسمَّى "الذكر" حمايةً ظاهرةً وباطنةً، في حياة النبي وبعد وفاته، وأنه تعالى سوف يحفظ القرآن الكريم بهذه الوسائل كلها. وكأن هذه الآيات تشترك في المعنى مع قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وما أرسَلْنا مِن قبلِك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنَّى ألقَى الشيطانُ في أُمْنِيّتِه فيَنسَخُ اللهُ ما يُلقِي الشيطانُ ثم يُحكِمُ اللهُ

آياته واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾(الآية: ٥٣).. أي أنه ما من نبي ورسول إلا إذا قرأ على مسامع الناس وحيَ الله تعالى دسّ الشيطان في هذا الوحي شيئًا من عنده، وبدأ بنشر هذه المفاهيم المدسوسة الخاطئة بين القوم، ولكن الله تعالى يقوم بمحو ما يضيفه الشيطان حمايةً لكلامه الخالص النقي.. أي لا شك أن ذوي الطبائع الشيطانية من البشر يحاولون تضليل الناس بتحريف وحي الله النازل على رسوله، ولكن الله تعالى يكشف صدق الوحي في آخر المطاف، ليجعل هؤلاء الماكرين خائبين خاسرين.

واعلم أن هناك شَبَهًا كبيرًا بين آيات سورة الحجر التي نحن بصدد تفسيرها وبين هذه الآية المذكورة أعلاه من سورة الحج. فقد ذُكر هنا أيضًا أن الله تعالى يحفظ السماء الروحانية، تمامًا كما ذُكر في سورة الحج أن الله تعالى يقوم بحماية وحيه. وقد أخبر الله هنا أن الشياطين يسعون للتدخل في السماء، تمامًا كما أخبر هناك أنهم يحاولون التدخل في كلام الله تعالى. وأكد أيضًا أنه ﷻ يهلك الذين يريدون العبث بالسماء، كذلك أكد هناك أنه تعالى يمحو كل أثر قد يتركه المتلاعبون بكلامه ﷻ.

فاتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الموضوع في الآيتين واحد. وحينما نجد أن موضوع تزيين السماء وحفظها ذُكر دومًا عقبَ الحديث عن الوحي الإلهي فلا يبقى من شك أن المقصود هنا إنما هو السماء الروحانية وحفظها، لا السماء المادية، وأن الأخيرة قد ذُكرت على سبيل التمثيل والمجاز فقط.

وتوضح هذه الآيات أن علامة الوحي "الذِّكر".. أي الذي يتم حفظه.. هي أنه كلما حاول أحد التلاعب به نـــزل "الشهاب" لحفظه من التحريف. فالوحي الذي لا ينـــزل "الشهاب" لحفظه لم يعد الآن على درجة "الذكر" وبالتالي لم يبق كلامًا محفوظًا.

ولنتذكر أن (الشهاب) معناه: (١) "شعلةٌ من نار ساطعة، (٢) كل مضيء متولد من النار وما يُرى كأنه كوكب منقضّ، (٣) وقد يطلق على الكوكب.

وقد ورد لفظ "الشهاب" هنا بمعنى الكوكب، لأن الله تعالى قد صرّح بذلك في موضع آخر بقوله ﴿إنا زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينة الكَوَاكب۝ وحفْظًا من كلِّ شيطان مارِد﴾(الصافات: ٧ و٨)؛ وأيضًا بقوله تعالى ﴿ولقد زَيّنّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعَلْناها رُجُومًا للشياطين...﴾(المُلك: ٦).. أي أنه تعالى جعل "المصابيح"، أي النجومَ في السماء القريبة، وسيلةً لرجم الشياطين. فثبت أن الشهاب يعني النجوم. فالمراد من إطلاق النجوم وراء الشياطين هو أنه طالما بقي الوحي متمتعًا بالحياة وموصوفا بصفة (الذِّكر) حفظه الله تعالى بإرسال الشهب أي النجوم.. أو بتعبير آخر.. ببعث المأمورين. وفي الآية التي نحن بصدد تفسيرها قد قطع الله ﷻ وعدًا خاصًا بحماية الوحي القرآني بهذه الوسيلة. والحق أنه ليس هناك من وسيلة لحفظ الوحي أقوى منها، لأن المأمورين لا يذودون عن بيضة الشريعة الحقة ولا يردّون هجمات الشياطين بالآيات البينات فحسب، بل من خلال شرحهم للشريعة يُدرك المؤمنون المفهومَ الحقيقي لكلام الله تعالى، لأن شرحهم يكون صحيحًا وسليمًا بحيث لا يحوم حوله الشك لكونهم مؤيَّدين بالإلهام الإلهي، وهكذا ينجو المؤمنون من وحل التفاسير المتضاربة الخاطئة التي لا تزال تشوش أفكار الأولين.

لقد اتضح جليًّا مما أسلفناه إلى الآن أنه لا بد من بعث الأنبياء المأمورين للمحافظة على الوحي السابق.. أي لتطهيره من وساوس الشياطين وللتدليل على كونه وحيًا حيًّا وذلك بآيات سماوية جديدة. ولكن المؤسف أن المسلمين ينكرون اليوم وجود هذه الميزة في القرآن الكريم حيث يظنون بأنه لا يمكن أن يُبعث الآن أي نبي ولو تابع للرسول الكريم ﷺ، مع أن القرآن الكريم يعلن هنا أنه طالما يبقى الوحي (ذِكرًا) فإن الله تعالى ينــزل النجوم والشهب من السماء الروحانية لحمايته من هجمات الأعداء. إن انقطاع بعث الأنبياء في الأديان الأخرى دليل على أن كتبها لم تعد (ذِكرًا)، ولكن القرآن الكريم هو (الذِّكر)، وسيظل هكذا إلى يوم القيامة، وبالتالي سوف يتم حفظه بهذه الوسيلة. وهذا لا

ينقص من عظمته أبدا، وإنما العكس هو الصحيح، لأن هذا يؤكد أن الوحي القرآني لا ينفك متسما بميزة كونه (الذِّكر).. بمعنى أنه وسيلة لإنشاء الصلة بين العبد والخالق، ولذلك فإن الله تعالى كما حافظ على نصه كذلك يقوم بحماية مفاهيمه بإرسال المأمورين الذين يردون عنه هجمات الشياطين من الداخل والخارج. فالذي يقول بأن الله تعالى قد توقف الآن عن إرسال "الشهاب المبين" أي نجم السماء الروحانية لحماية القرآن فكأنه يقول- عياذًا بالله- أن القرآن لم يعد (الذِّكرَ)، ولا يتمتع الآن بالحماية الإلهية من هجمات الشياطين.

قال أحد المفسرين المعاصرين أنه فيما يتعلق بالوحي القرآني فإن الله تعالى هو الذي يتولى حفظه، أما ما نزل قبله من الوحي فكان البشر يقومون بحمايته. وقد استدل على صحة زعمه بقول الله تعالى ﴿إنا نحن نزّلنا الذِّكرَ وإنا له لحافظون﴾، وقول الله تعالى: ﴿إنا أنزَلْنَا التوراةَ فيها هُدًى ونُورٌ يحكُمُ بها النبيّون الذين أسلَموا للذين هادُوا والربّانيّون والأحبارُ بما استُحفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداءَ﴾(المائدة: ٤٥)؛ ويقول هذا المفسر أن قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كتابِ اللهِ﴾ يعني أنهم جُعلوا مسؤولين عن حفظ كتاب الله (بيان القرآن ج ٢ ص ١٠٤٨).

ولكني أقول: كان هذا الاستدلال صحيحًا لو لم يرد هنا ذكر النبيين، ولكن الله تعالى يخبر أن النبيين هم الذين كانوا مسئولين عن حفظ الكتاب؛ والواضح أن النبي لا يعمل بقوته هو وإنما بقدرة الله ﷻ، فكيف يمكن إذًا القول أن حفظ التوراة كان موكولاً إلى البشر. لنفترض أن أحدًا غيّر مفهومًا من مفاهيم التوراة، وعهد الله بمهمة إصلاح هذا العيب إلى أحد الأنبياء، فكيف كان هذا النبي يعرف المفهوم الصحيح؟ هل كانت لديه أية وسيلة لمعرفة الحقيقة سوى وحي الله ﷻ؟ وما دام الله هو الذي يُطلعه بوحيه على الخطأ والصواب فثبت أنه تعالى هو الذي قام بحفظ الكتاب وليس البشر. أو لنفترض أن شياطين القوم حاولوا

تحريف معاني التوراة وتضليل الناس، فتصدى لهم هذا النبي بالمعجزات والآيات والبراهين السماوية؛ فهل يُعزى هذا إلى النبي؟ كلا، بل يُنسَب هذا إلى الله ﷻ.

فلا يصح القول إذن بأن الله تعالى قد تولى بنفسه حفظ الوحي القرآني فقط، وأما ما نزل قبله من الوحي فكان البشر يقومون بحفظه؛ بل الحق أنه تعالى هو الذي تولى حفظ كل وحي ما دام ذلك الوحي "ذِكرًا"، وقد أثبتُّ ذلك قبل قليل. إذا كان الله ينجز أمرًا ما عن طريق العباد فإنما مثلهم كمثل أداة يستخدمها أحد ليس إلا. وعلى سبيل المثال، فإن انتشارَ القرآن في العالم وحِفظَه عن ظهر قلب من قِبل أصحاب الذاكرة القوية قد تم على يد البشر دونما شك، ومع ذلك لا يمكن أن يدعي أحد أن حفظ القرآن موكول للبشر. ذلك لأن هذا كله أيضًا قد تم بتدبير وتوفيق من عند الله تعالى.

واعلمْ أن فضل القرآن على الكتب الأخرى لا يكمن في كونه محميًّا بيد الله تعالى بشكل مباشر، وكون ما سبقه من الوحي محميًا مِن قبل البشر، وإنما دواعي فضله هي كالآتي:

أولاً: كون القرآن سيظل متصفًا بصفة (الذِّكر) إلى يوم القيامة، وسوف يرسل الله من السماء "شُهبًا".. أي عبادًا له يتولون حماية القرآن من عبث الشياطين الذين يريدون له الفساد. وأما الأسفار الأخرى فبقيت على درجة (الذِّكر) لفترة محدودة، ثم فقدت هذه الميزة فرفع الله عنها حمايته، وقد حدث هذا منذ زمن بعيد، فلا يرسل ﷻ لحفظها الآن الشهب المهلكة للشياطين.

ثانيًا: إن القرآن الكريم كله كلام الله ﷻ.. أي أن كل حرف وكل حركة وسكون فيه كان من الوحي الإلهي، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للكتب السابقة، فإنها خليط من كلام الله وكلام البشر الذي أضيف إليه كشرح له.. وهذا بيّنٌ وجليّ في العهد القديم والأناجيل. فكان الله تعالى يكتفي بحماية مفاهيم الأسفار القديمة دون نصوصها، لأن (الذِّكر) كان يعني حينئذ المفهومَ لا النصَّ، إذ كان الأنبياء أو أتباعهم يبلّغون الناسَ فحوى الوحي الإلهي بكلماتهم

عمومًا من دون نصه، ولم يروا في ذلك أي حرج. ولكن بما أن وحي القرآن كان ذا صبغة أبدية، لذلك غيّر الله عند تنـــزيله أسلوب الحماية، ففرض على أهله أن يحفظوه بنصّه وفصّه. فدُوّن كل لفظ منه مع حركاته، وحُفظ عن ظهر قلب، وظل محفوظًا محميًّا. وهذا الحفظ لم يتيسر لأي وحي آخر من قبل، لا بيد البشر ولا بيد الله تعالى. أما الحفظ المعنوي فلا جرم أن الكتب السابقة أيضًا تمتعت به لزمن معين كما سيتمع به القرآن الكريم إلى يوم القيامة.

وهناك سؤال آخر يستوجب الرد وهو: هل لسقوط الشهب من السماء المادية أية علاقة ببعث الأنبياء؟ فما دام الأنبياء قد شُبّهوا بها فلا بد أن يكون في سقوطها من المنافع ما يمكن اعتباره بمثابة رمي الشياطين؟

والجواب أنه من سنة الله المستمرة منذ القديم أنه يُري من أجل رسله نوعين من الآيات: آيات أرضية أي ما يقع على الأرض قريبًا من البشر، مما يمكن أن يظن بعض المرتابين أن هذا ليس من فعل الله تعالى، بل هو من عمل المدعي نفسه قام به بحيلة بارعة خفية علينا. ولكن هناك آيات أخرى تتعلق بالسماء أي بالأجرام السماوية، التي لا سلطة للبشر عليها؛ ومن هذه الآيات السماوية سقوطُ الشهب. وتقع هذه الآيات إما تحقيقًا لنبأ أدلى به النبي نفسه أو وِفقًا لأنباء الرسل أو الأولياء الذين خلوا من قبله. والثابت من تاريخ الأنبياء أن الشهب سقطت بكثرة لدى بعث المسيح الناصري ونبينا الكريم عليهما السلام. وقد سقطت في زمن النبي ﷺ بكثرة حتى ظن الكفار أن أهل السماء قد هلكوا وأن القيامة قد حلت وحان هلاك أهل الأرض.. حيث ذُكر: "فلما بعث الله محمدًا ﷺ نبيًّا رسولاً رُجموا ليلةً من الليالي. ففزع لذلك أهل الطائف فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب. فجعلوا يُعتقون أَرِقّاءَهم وَيُسيبون مواشيَهم. فقال لهم عبدُ ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف، أمسكوا عن أموالكم وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي

كبشة يعني محمدًا ﷺ، وإن نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء. فنظروا فرأوها، فكفّوا عن أموالهم." (ابن كثير، سورة الجن، قوله: وأنّا لمسنا السماء...)

هذه الآية ظهرت بحسب أنباء الأسفار السابقة حيث يذكر التاريخ أن أنبياء بني إسرائيل نبّأوا بحدوث تقلبات سماوية في زمن ظهور النبي ﷺ. فقد ورد في الحديث: "أن هِرَقْلَ حين قَدِمَ إِيلِياءَ أصبَحَ يومًا خبيثَ النَّفْس، فقال بعضُ بَطارِقَته: قد استَنْكَرْنا هيئتَك - قال ابن الناظُور: وكان هِرَقْلُ حَزَّاءً ينظُر في النجومِ - فقال لهم حين سأَلوه: إني رأَيتُ الليلةَ حين نظَرتُ في النجومِ مَلِكَ الختانِ قد ظهَر." (البخاري: بدء الوحي)

علمًا أن المراد من "مَلِكِ الختان" هو ملك العرب أي نبينا الكريم ﷺ.

أما المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فثمة أحاديث تؤكد سقوط الشهب بكثرة في زمنه أيضًا (شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ١ ص١٢٢). كما ورد في الإنجيل أيضًا عن البعثة الثانية للمسيح أنه: "تكون علامات في الشمس والقمر والنجوم." (لوقا ٢١: ٢٥)

فكل هذا يؤكد أن سقوط الشهب كعلامة على بعث نبي من الأنبياء هو سنة إلهية مستمرة منذ القدم. أما الهدف الظاهر من سقوطها فقد سبق بيانه وهو أن الله يريد بهذه الآيات السماوية تخليص الناس من الشكوك والوساوس، كيْ لا يظنوا أن معجزات النبي هي من قبيل خدع المشعوذين. غير أنه ليس من المستبعد أن يكون لسقوط الشهب لدى بعثة نبي هدفٌ آخر وتأثير روحاني خفي لا يعرفه الناس، ولكنه يساعد على دفع المكائد الشيطانية التي يلجأ إليها أعداء الأنبياء.

وأتناول الآن الآيات المختلفة الواردة في هذا الموضوع وآراءَ المفسرين حولها. لقد ذكر القرآن الكريم موضوع سقوط الشهب رميًا للشياطين أو حفظًا للسماء في الآيات التالية:

١- هذه الآيات من سورة الحجر التي نحن بصدد تفسيرها.

٢- ﴿ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعَلْناها رُجومًا للشياطينِ﴾(المُلك: ٦).

٣- ﴿إنا زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينة الكواكبِ۞ وحفظًا من كل شيطان مارد۞ لا يَسَّمَّعون إلى المَلإِ الأعلى ويُقذَفون من كل جانب۞ دُحُورًا ولهم عذابٌ وَاصبٌ۞ إلا مَن خَطِفَ الخَطْفةَ فأَتبَعَه شهابٌ ثاقبٌ﴾(الصافات: ٧-١١)

٤- ﴿وأنا لَمَسْنا السماءَ فوجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا۞ وأنا كنا نقعُد منها مَقاعدَ للسمعِ فمَن يستمعِ الآنَ يَجِدْ له شهابًا رَصَدًا﴾(الجن: ٩ و١٠)

٥- ﴿وزَيَّنَّا السماء الدنيا بمَصابيحَ وحِفظًا ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾(فصِّلت:١٣)

هذه هي الأماكن الخمسة التي ورد فيها هذا الموضوع تفصيلاً أو إجمالاً. يقول المفسرون بأن الله يُنـــزل وحيه تدريجيًا، وحين يصل الوحي إلى السماء الدنيا تصعد الشياطين بعضهم على بعض إلى السماء لتسترق منه شيئًا، وحينما تخطف منه بعضَ الأخبار وترتد فإنها تُرمى بالشهب.

وقد اختلف المفسرون فيما إذا كانت الشهب تقتل الجنَّ أم لا، فهناك قول يُنسب إلى ابن عباس بأن الشهب لا تقتل الجنَّ وإنما تجرحهم أو تكسر بعض أعضائهم، بينما قال الحسن البصري وطائفة أخرى: إنها تقتل الجن. ثم قال بعضهم: إنهم يُقتَلون بعد إلقاء هذه الأخبار إلى السحرة والكهنة، بينما قال الماوردي إن الشهب تسقط عليهم وتقتلهم قبل أن يُلقُوا ما اختطفوه. (القرطبي)

ثم اختلفوا فيما إذا كان الرمي بالشهب قائمًا قبل النبي ﷺ أم لا؟ فقال أكثرهم: نعم، وقيل: لا. وقال الزجاج: الرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده، لأن الشعراء قبله لم يذكروه في أشعارهم. وقال صاحب "فتح البيان": وطريق الجمع بين القولين هو أن الرمي كان موجودا قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بُعث شُدّد ذلك. (فتح البيان، سورة الحجر)

وجاء في التفاسير أيضًا: "عن ابن عباس قال: كان الشياطين لهم مقاعدُ في السماء يستمعون فيها الوحيَ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعًا، فأما الكلمة فتكون حقًّا وأما ما زادوا فيكون باطلاً. فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعوا مقاعدهم. فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك. فقال لهم

إبليس: ما هذا الأمر إلا لأمر حدث في الأرض! فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يصلي بين جبلَي نخلة. فأتوه فأخبروه. فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض. وفي رواية أن إبليس أُتيَ من كل أرض بتربة فشمَّها. فقال لتربة تهامة: هنا حدث الحدث". (الدر المنثور، سورة الجن)

إنه لمن المؤسف أن هؤلاء المفسرين الكبار الذين بذلوا دون أي شك جهودًا جبارة مشكورة في تفسير القرآن الكريم.. قد فرّطوا تفريطًا خطيرًا في هذه القضية مرتعبين من الروايات التي لا أصل لها بتاتًا والتي تخالف صريح القرآن. إن ملخص ما ورد في تفاسيرهم هو: (أولاً) أن الشياطين كانوا قادرين على سمع أخبار السماء، و(ثانيًا) أن هذه الأخبار كانت تحتوي على الغيب أيضًا، و(ثالثًا) أن إبليس لم يعلم بمبعث النبي ﷺ إلا عندما رأى رمي الشهب.

هذه هي المحاور الثلاثة التي تدور حولها التفاسير، ولو طرحناها من الروايات لم يبق فيها شيء يُذكر. ولكن الأمور الثلاثة باطلة تمامًا.

أولاً: تقول التفاسير بأن الشياطين قادرون على سماع أخبار السماء، ولكن القرآن الكريم يخالف هذا الزعم صراحةً في الآيات التالية:

١- ﴿أم لهم سُلّمٌ يستمعون فيه فليأتِ مستمعِهم بسلطان مبين﴾(الطور:٣٩). فالآية صريحة في إعلانها أن الكفار وأعوانهم غير قادرين حتى على الوصول إلى السماء ناهيك أن يستمعوا منها أخبارها. ولو سلّمنا جدلاً بصعود الجن إلى السماء فسؤالنا هو: ألم يكن بإمكان الكفار أن يعترضوا على النبي ﷺ لدى نزول هذا الوحي قائلين: أنت تقول، من جهة، إن الجن تصعد إلى السماء، فكيف تقول لنا في الوقت نفسه: ﴿أم لهم سُلّمٌ يستمعون فيه﴾؟

٢-﴿وما تَنــزَّلتْ بِهِ الشياطِينُ۝ وما ينبغِي لهم وما يستطيعون۝ إنهم عنِ السَّمْعِ لَمعزولون﴾(الشعراء: ٢١١ -٢١٣).. أي أنه لا حقيقة لاتهام الكفار بأن الشيطان هو نــزل على محمد بهذا الكلام، وذلك للأسباب التالية: الأول: أنه من المستحيل أن تكون للشيطان علاقة مع شخص طاهر الذيل نزيه السيرة

كمحمد. والثاني: أن ما أتى به محمد من تعليم مقدس سامٍ يستحيل أن يُنـــزله الشيطان، إذ كيف يمكن للشيطان أن يأمر الناسَ بما فيه هلاكه هو. والثالث: أن ما نـــزل على محمد يتضمن علومًا سماويةً، والشيطان غير قادر على أن يسمعها، لأن الله تعالى قد حظر عليه سماعها.

فكيف يمكن لأحد - بعد قراءة هذه الأدلة القرآنية القوية - أن يتصور أن الشيطان يستطيع سماع أخبار السماء؟

ثانيًا: يزعم كثير من المفسرين أن الشياطين أو الجن كانوا يختطفون هذه الأخبار الغيبية، ولكن هذا الزعم أيضًا باطل على ضوء الآيات القرآنية التالية:

١- ﴿فقُلْ إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾(يونس: ٢١).

٢- ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾(الطور:٤٢ والقلم: ٤٨). فكيف يقال- بعد هذه الآيات الصريحة- أن الجن كانوا يختطفون علم الغيب من السماء؟

٣- ﴿وقد كفَروا به مِـــن قبلُ ويَقذِفون بالغيب مِن مكانٍ بعيد۝ وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِلَ بأشياعِهم مِن قبلُ إنهم كانوا في شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (سبأ: ٥٤ و٥٥).. أي أن هؤلاء في شك مريب، لذا هناك حائل بينهم وبين الغيب، لأنه لا يَنـــزِل إلا على قلب يكون أسمى من كل شك وريبة، ويكون على درجة عالية من الإيمان واليقين. إذن فهذه الآية أيضًا تؤكد أنهم ما كانوا يصعدون إلى السماء، بل كانوا يقولون ما يقولون خرصًا وتخمينًا.

٤- وكذلك جعَلْنا لكل نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورًا ولو شاء ربُّك ما فعَلوه فَذَرْهم وما يَفتَرون﴾(الأنعام:١١٣). لقد أكد الله تعالى هنا أيضًا أن أعداء الأنبياء من الجن والإنس ما كانوا يتبادلون أخبار الغيب، وإنما كانوا يتناقلون الكذب والغرور؛ ولذلك نجده ﷻ لا يقول لرسوله ﷺ بأنهم يسمعون أخبار السماء، فعليك بالحذر منهم، بل يقول: إنهم يفترون، فدَعْهم وشأنهم، فإن الله تعالى هو الذي سوف يرد على افترائهم.

٥- ﴿عالِمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبه أحدًا۝ إلا مَنِ ارتضَى مِن رسولٍ فإنه يسلُك مِن بين يديه ومِن خَلْفه رَصَدًا۝ لِيعلَمَ أنْ قد أبلغوا رِسالاتِ ربِّهم وأحاطَ بما لديهم وأحصَى كلَّ شيءٍ عَدَدًا﴾(الجن: ٢٧-٢٩)

فانظر كيف تبطل هذه الآية مزاعم هؤلاء المفسرين بكل وضوح وجلاء. فالله ﷻ لا يعلن فيها أنه هو وحده يحتكر علم الغيب فحسب، بل يصرح كذلك أنه لا يُطلع على غيبه إلا رسلَه الذين يختارهم هو بنفسه وليس الناسُ. كما أنه تعالى لا يزال يحرس هذا الغيب إلى أن يصل إلى رسله دون أي تدخل من أحد، بل لا يبرح الله تعالى يحمي رسالته حتى بعد وصولها إليهم إلى أن يبلِّغوها الناسَ. وكأن الشياطين لا يعلمون من أمر الوحي شيئًا قبل أن يوصله الرسل إلى البشر. أما بعد انتشاره بين القوم فكما هو ظاهر من آيات أخرى فإن الشياطين تبدأ في الكيد والمكر ضد الوحي، لكن من دون أن يفلحوا في مكائدهم الخبيثة. فثبت من هذه الآية أن اختطاف الوحي من قِبل الشيطان يبدأ بعد أن يكون الأنبياء قد نشروه بين الناس. ونظرًا إلى هذا المفهوم فإن "السماء الدنيا" ستعني مجلس النبي، وليس الجو أو الفضاء الذي نراه فوق رؤوسنا.

٦- ذكرتُ حتى الآن الآيات التي فيها دلالة عمومية، وسأذكر الآن آية تتحدث عن الجن خاصة، وتبين تمامًا أنهم ما اطّلعوا على الغيب قط، قليلاً أو كثيراً، لا في زمن النبي ﷺ ولا بعده، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿فلمّا قضَينا عليه الموتَ ما دَلَّهم على موته إلا دابّةُ الأرضِ تأكُلُ مِنْسَأَتَه فلمّا خَرَّ تَبيَّنتِ الجنُّ أنْ لو كانوا يعلَمون الغيبَ ما لبثوا في العذابِ المُهينِ﴾(سبأ:١٥).

تتحدث هذه الآية عن موت سليمان عليه السلام، وتدل صراحة على أن الجن لم يعلموا الغيب حتى قبل زمن الرسول ﷺ أيضًا. لو كان الجن يستمعون أخبار الغيب من السماء فلماذا لم يطلعوا على وفاة سليمان؟ إن سليمان عليه السلام نبي، والظاهر أن خبر وفاته لا بد أن يكون قد نزل بالوحي مع ملائكة خصوصيين لأن مبعث نبي أو وفاته حادث بالغ الأهمية.

ثالثًا: زعم المفسرون أن الجن بل إبليس إنما عَلِمَ بمبعث النبي ﷺ بعد ظاهرة رمي الشهب حين وجد أعوانُه الرسولَ ﷺ قائمًا يصلي بالناس. ولكن الثابت تاريخيًّا أن الرسول ﷺ بدأ الصلاة بالجماعة علنًا بعد مبعثه بعدة سنوات (السيرة النبوية لابن هشام: إسلام عمر). ولو سلّمنا برأي المفسرين لكان معناه أن إبليس لم يعلم بمبعث النبي ﷺ إلا بعد مضي عدة سنوات، وهو أمر يخالف الواقع وصريح القرآن؛ ذلك أنه بمجرد أن يعلن النبي دعواه ينقلب بيت الشيطان مأتمًا، وتبدأ الشياطين، سواء شياطين الإنس أو شياطين الجن، في الكيد والمكر بجماعة النبي. فإذا كان إبليس وغيره من الشياطين غافلين عن بعثة الرسول ﷺ طيلة هذه الفترة فمن ذا الذي كان وراء موجة المعارضة والاضطهاد في مكة. فليفسروا كلمة إبليس بأي معنى يشاءون، إلا أن الزعم بأنه ظل جاهلاً بمبعث النبي ﷺ طيلة هذه الفترة لزعمٌ مناف للعقل والقرآن والسنة الإلهية؛ إذ يصرح الله ﷻ في القرآن الكريم قائلا ﴿وكذلك جعَلْنا لِكل نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورًا﴾(الأنعام: ١١٣). وهذا يعني أن الله تعالى نفسه يخبر الشياطين من الجن والإنس بمبعث النبي، وذلك بطريق يراه هو ملائمًا ومناسبًا، فيناصبون النبيَّ العداء بمجرد أن يعلن دعواه. فكيف يمكن إذًا أن يبقى إبليس وأعوانه غافلين عن مبعث الرسول ﷺ طوال هذه الفترة.

علمًا أنني قد استخدمتُ هنا مسميات الجن وإبليس والشيطان بمعناها المتداول والمتعارف عليه عمومًا، وذلك تسهيلاً للقارئ وإلزامًا للخصم؛ فلا ينخدعن أحد بذلك فيظن أنني أقبل تلك المعاني مائة بالمائة؛ كلا، بل سوف أبين موقفي الخاص بصددها في مكانها.

هذا، وبقي سؤال يجب الرد عليه وهو: إذا كان الجن غير قادرين على سرقة علم الغيب من السماء أو استماع أخبارها فما هو المراد مما ذُكر في الحديث بأنهم يصِلون إلى السماء صاعدين بعضهم على بعض يختطفون أخبارها؟

والجواب أن المراد من سرقة الجن علمَ الغيب هو استماعهم لحديث الأنبياء بسوء النية. وأما صعود بعضهم فوق بعض فيعني أن أئمة الكفر منهم لا يحضرون بأنفسهم مجالس الأنبياء لتـــزول شكوكهم بسماع موقف الأنبياء من أفواههم مباشرة، وإنما يطلعون على تعاليمهم دائمًا بوسائط عديدة أخرى ظانين أن هذا هو الطريق الأكثر دهاءً وذكاءً. وبما أن نيتهم غير سليمة، وأنهم يعارضون بناءً على ما يسمعونه من هذا وذاك، فلذلك يختلط الكذب في حديثهم عن الرسل كثيرًا بحيث لو يصدُقون فيه مرة فإنهم يكذبون فيه مائة مرة.

وأما ما ورد في الروايات أن الجن يُرمَون بالشهب أحيانًا قبل إلقائهم الأخبار إلى الناس، وأحيانًا بعد الإلقاء.. فمعناه أن بعض أعداء الحق يعاقَبون فورًا على إساءتهم للرسل، وبعضهم يُمهَلون طويلاً لحكمة يعلمها الله تعالى، فلا يبرحون في إثارة القوم ضد الرسل إلى أن يفاجئهم "الشهابُ" في يوم من الأيام.

وأود أن أنقل هنا اثنتين من الروايات حتى يستحضر القارئ نص الحديث. تقول الرواية الأولى: "عن أبي هريرة يبلغ به النبيَّ ﷺ قال: إذا قضى الله الأمرَ في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها – خُضْعانًا لقوله – كالسلسلة على صفوان. قال علي وقال غيره: صفوان يَنفُذهم ذلك. فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قالَ ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع. ومسترقو السمع هكذا: واحد فوق آخر، ووصفَ سفيان بيده وفرّج بين أصابع يده اليمنى نَصَبَها بعضها فوق بعض. فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض. وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتُلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيصدَّق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًّا للكلمة التي سُمعت من السماء". (البخاري: التفسير، سورة الحِجر)

والرواية الثانية هي: "قال ابن أبي حاتم.. عن النواس بن سمعان ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماواتِ منه رجفةٌ أو قال رعدةٌ شديدة من خوف الله تعالى. فإذا سمع بذلك أهلُ السماوات صُعقوا وخرّوا لله سجّدًا. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام. فيكلمه الله من وحيه بما أراد. فيمضي به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلها من سماء إلى سماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول عليه السلام: قال الحقَّ وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل. فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض". (تفسير ابن كثير، سورة الحجر)

لقد أكدت هذه الرواية أن الوحي يصل تحت حراسة جبريل إلى حيث يريد الله ﷻ وصوله إليه.. أي إلى الرسول. إذًا فالراويات التي تقول بأن الجن يختطفون من الوحي لا تعني إلا أنهم يختطفون منه بعد وصوله إلى الرسول وبعد إعلانه عما نزل عليه بين الناس، فينشر الجنُّ بين أعوانهم ما اختطفوه من الوحي بعد خلطهم إياه بكثير من الأباطيل التي افترَوها من عند أنفسهم. ومما لا شك فيه أن عامة الناس يستغربون دائمًا مما يعلنه النبي، وأنهم حين يسمعون من أتباع النبي أنفسهم ما نقل إليهم شياطينُ الناس من الوحي على صورته الصحيحة فإنهم أي عامة الناس يصدّقون بسبب سذاجتهم كل ما يعزوه هؤلاء الشياطين إلى النبي من رطب ويابس، فيقولون – أي عامةُ الناس – فيما بينهم مخدوعين بمكر هؤلاء الشياطين: ألم تروا أن فلانًا من الصالحين الكبار كان قال عن هذا المدعي كذا وكذا وها قد ثبت صدقه، فها إن أتباعه أنفسهم يؤكدونه. وهكذا يصدّق هؤلاء السذج كلَّ ما يبلغهم من قبل كبرائهم الكاذبين ضد الرسول من أباطيل؛ ظنًّا منهم أن أتباعه يُخفون الكثير من أمره، وأن الصحيح هو ما بلغهم عن طريق زعمائهم.

وتحدث هذه الظاهرة الغريبة في عصر كل نبي، فيقع الآلاف فريسةً لها؛ لأنهم لا يتكبدون بأنفسهم عناء البحث عن الحق، وإنما يعتمدون على بيانات زعمائهم الدينيين اعتمادًا كليًّا وأعمى، وبالتالي يظلون محرومين من قبول الحق.

ثمة أمور أخرى أريد ذكرها هنا بصدد ما شاع بين العوام من معان خاطئة حول هذه الآيات، أو ذكَرها بعض المفسرين، خلافًا لمراد القرآن الكريم، بسبب خطئهم في فهم الأحاديث الصحيحة أو لاعتمادهم على الروايات الضعيفة.

لقد أخطأ المفسرون الذين ظنوا أن ما يسقط من السماء في صورة ضوء ساطع هو نجم. كلا، بل هو شهاب. إن القرآن الكريم لم يقل أبدًا بأن النجوم الحقيقية هي التي تسقط، كما أن هذا ليس هو الأمر الواقع، و لم يقل به المفسرون الموثوق بهم، حتى إن الكفار أنفسهم كانوا يدركون أن علامة بعث النبي ﷺ هي سقوط الشهب لا سقوط النجوم.. كما تؤكد على ذلك الروايةُ التي تتحدث عن أهل الطائف والتي سجلناها قبل بضع صفحات.

هذا، وإن الله تعالى يؤكد في القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا أنه يقوم بحماية السماء، فكيف، يا تُرى، يستطيع الشيطان أن يختطف شيئًا من السماء المحمية بيد الله ﷻ.

يقول البعض أن الشياطين تختطف بعض الوحي حينما تأتي به الملائكة إلى السماء الدنيا! وهنا نسأل أصحاب هذا الرأي: أيُّ الفريقين أسبق من الآخر في إنزال الغيب على أوليائه.. الملائكة أم الشياطين؟ فإذا كانت الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الرسول فما الداعي أن يختطفه الشياطين ما دام الناس قد سمعوا خبره من فم النبي نفسه؟ ولو قالوا أن الشياطين هم الذين يسبقون الملائكة في نشر خبر السماء بين أوليائهم فهذا يعرّض النظامَ الإلهي كله لسهام الطعن والارتياب! إذ لو كان هؤلاء المَرَدة الأشرار يتمكنون من اختطاف الوحي قبل وصوله إلى البشر – رغم الحماية الإلهية الصارمة – فكيف يمكن أن يثق أحد بوحي الأنبياء؟ إذ قد يقول قائل: ربما يضيف هؤلاء الشياطين إلى الوحي شيئًا

من عندهم قبل أن ينـــزل على الأنبياء مثلما يتمكنون من اختطافه وهو في السماء؟! وبالفعل يوجد بين المفسرين من يزعم أن الشيطان ألقى – والعياذ بالله– بعض الكلمات من عنده على لسان الرسول ﷺ أثناء نزول الوحي عليه (ابن كثير: سورة الحج). والحق أن الشيطان لو كان قادرًا على اختطاف بعض وحي الله رغم الحماية الإلهية – معاذ الله – لكان قادرًا أيضًا على إهلاك النبي بالرغم من العصمة الإلهية. فكما أن هذا غير وارد كذلك اختطاف الشيطان للوحي وهو ينـــزل من السماء أمر محال.

وهناك من يحتج بقول الله تعالى ﴿إلا مَن استرَق السمعَ﴾ وقوله ﴿إلا مَن خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾.. ويقول بأنه تعالى نفسه قد أعلن هنا أن الشيطان قادر على سماع غيب أو اختطاف خبر من الوحي.

والجواب أن الاستثناء المذكور هنا بـــ "إلا" متعلق بفعل الشيطان لا بفعل الله تعالى. لو أنه ﷻ قال: إننا نحفظ وحينا إلا قليلا مما نسمح بأخذه للشيطان لجاز هذا الاستدلال، لأنه تعالى يمنحه هذا عن رضى ورغبة، ولكن الله تعالى يقول: إننا نحفظ كلامنا، ولكن الشيطان يختطف منه شيئًا. فإذًا من المحال الأخذُ بالمعنى الظاهري الذي يتمسك به هؤلاء لأنه مناف لعظمة النبي والوحي، بل يشكل دليلاً – والعياذ بالله – على عجزه ﷻ بدلاً من أن يؤكد قدرته ﷻ. ثم لو كان هذا المعنى الظاهري صحيحًا للزم تساقُط الشهب كلما قام أحد من المنجمين بعمل حسابه عن النجوم. ولكن الواقع يخالف ذلك، لأن هناك آلافًا من المنجمين والكهّان وعلماء الرمل والجفر* والفلك والجو الذين يحاولون ليلَ نهارَ معرفةَ أخبار الغيب، فإذا كانت الشياطين هي التي تزوّد هؤلاء بالأخبار التي

* ورد في المنجد: عــلم الجَفْر ويسمّى علم الحروف: علمٌ يدّعي أصحابه أنهم يعرفون به الحوادث إلى انقراض العالم. وعلم الرَمْل: هو البحث عن المجهولات بخطوط تُخَط على الرمل، وهو من الخرافات (المترجم).

تختطفها من وحي السماء.. فيجب أن يستمر سقوطُ الشهب كالمطر ليل نهار دونما انقطاع!

ولو قيل بأن الشهب إنما تسقط لدى سماع الشياطين أخبارَ السماء، لكان معناه أن سماعها واختطافها للأخبار عند مبعث نبي يكون أكثرَ منه في أي وقت آخر، لأنه زمن يكثر فيه سقوط الشهب عادة؛ مع أن مبعث نبي من الأنبياء هو فترة تكون الحماية الإلهية فيها على أشدها، ويجب أن تكون كذلك.

ثم ما هو المقياس الذي نعرف به أنه فيما يتعلق بزمن نبي فإن المنجمين يتنبؤون عن أحداث المستقبل بمساعدة الشياطين، وأما في الأوقات الأخرى فيتنبؤون بناءً على حساباتهم فحسب، إذ لا بد من التمييز بين هذين النوعين من الأخبار. فإن قيل أن أنباء المنجمين في زمن نبي تكون أكثر تحققًا منه في أي فترة أخرى، فهذا باطل بالبداهة؛ وإن قيل بأنهم يتنبؤون بمساعدة الشياطين دومًا، فهذا أمر سوف يرفضه ويعتبره خلافًا للعقل كلُّ مَن له إلمام بعلم النجوم. لا شك أن علم النجوم والرمل وما شاكلهما من العلوم لغوٌ لا فائدة فيها، ولكنها قائمة على أسس علمية، ولا علاقة لها بالجن وغيره بتاتًا.

نعم، هناك فئة من أصحاب هذه العلوم تسمّى "الأرواحية" أو "الروحانيين"، الذين يدّعون بمناجاة الأرواح وتحضيرها. والواقع أن هؤلاء أيضًا فئتان: فئة يقومون بخداع الناس وتسفيههم، وعددهم كبير؛ وفئة أخرى هم مخدوعون بأنفسهم حيث إنهم – بسبب جهلهم بدقائق العقل الإنساني – اعتبروا بعض القدرات الإنسانية الروحانية عملاً وتأثيرًا من قبل أرواح العالم الأخروي. ومهما يكن من أمر فإن الآية لا تتحدث عن هذه الفئة أيضًا، لأننا لا نرى سقوط الشهب لدى قيامهم بتحضير الأرواح.

وخلاصة القول إن هذه الآيات تتحدث عن الحماية الإلهية للوحي حيث يؤكد الله ﷻ فيها أنه ليس بوسع كائن أن يطّلع على شيء من الوحي قبل أن ينـــزله الله على رسوله، أما بعد نزوله عليه وإعلانه عنه فإن شياطين الإنس

والجن يختطفون الوحي بشتى الطرق، ليخلطوا فيه الكذب من عند أنفسهم وليَعرضوه على القوم بهذا الشكل المشوه الممسوخ، إثارةً لمشاعر القوم ضد رسولهم. والواضح أن عملية خلط الوحي بالكذب إنما تنفع هؤلاء الماكرين في حالة واحدة فقط وهي بعد أن يكون الوحي قد نزل، وإلا فلو كان الجن بالفعل يختطفون أخبار الغيب من السماء فما الداعي أن يخلطوها بالكذب؟ هل هم مجانين حتى يخلطوا هذه الأخبار بالكذب فيفضحوا أنفسهم بأنفسهم حين ينكشف زيفُ ما لا يتحقق من هذه الأخبار المستقبلية. أما قيام أعداء الحق بخلط وحي الأنبياء بالكذب والباطل فهي ظاهرة مستمرة تشاهَد على الدوام، حيث يأخذون عبارة من الوحي ويفسرونها تفسيرًا مشوَّهًا، أو يعرضون على الناس فقرة من الوحي مبتورة عن سياقها، ليثيروا القوم ضد الأنبياء. لم يزل هذا دأبَ أعداء الرسل في كل زمان، وهذا هو الخطف الذي أجازته المشيئة الإلهية للشياطين، بل وقد أتاحت لهم الفرصة لذلك حيث يخبرنا الله بكلمات لا لبس فيها ولا غموض: ﴿وكذلكَ جَعَلْنا لكل نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُرورًا﴾(الأنعام: ١١٣)، وقال أيضًا ﴿وكذلك جَعَلْنا في كلِّ قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكُروا فيها وما يمكُرون إلا بأنفسهم وما يشعُرون﴾(الأنعام: ١٢٤).

إذن، فكما أن الله تعالى يقوم بحماية وحيه بحيث لا يستطيع أحد من الأعداء تبديل وحيه ﷻ، سواء كان هذا العدو ظاهرًا أو خفيًّا، كذلك فإن الله ﷻ يسمح – لحكمة ما– لشياطين الناس بأن ينشروا بين القوم معانيَ محرّفة لوحيه، أو أن يثيروا مشاعرهم ضد نبيهم بنشر الأكاذيب حول ما نزل عليه من الوحي؛ ولكن بعد أن يقوم هؤلاء الماكرون بدعايتهم المزوّرة ضد وحي الأنبياء وإثارة القوم خلافهم بشتى الافتراءات.. ينـــزل عليهم شهاب من السماء، فيُفضَحون على يد الأنبياء.

وهذا الاستثناء – كما ترى – لا يقدح في عظمة الله تعالى لأنه هو الذي قد أجازه، كما لا يضر هذا بالدين شيئًا، وإنما يبقى الدين مصونًا محفوظًا كما كان، لأن هذه الأباطيل تنتشر بين الأعداء فقط، ليفرحوا بها فرحةً باطلةً عابرةً.

علمًا أنه يتضح من القرآن الكريم أن أصحاب هذه الأنشطة المعادية نوعان: أولهما العدو من الداخل أي المنافقون، وثانيهما العدو من الخارج أي المعارضون. ذلك أن الله تعالى قد عزا هذه العمليات إلى "شيطان رجيم" مرةً (سورة الحِجر والمُلك)، وإلى "شيطان مارد" مرة أخرى (سورة الصافات). والرجيم في اللغة هو المطرود المُبعَد، وأما المارد فهو الباغي المتمرد. إذًا فسورتا الحِجر والمُلك تشيران إلى أعداء الدين من الكفار.. أي الذين لم يوفّقوا للاقتراب من الدين ولو ظاهرًا، بل أُبعدوا عنه، والله تعالى يَعِدُ بحماية القرآن من هجماتهم. وأما سورة الصافات فتنبئ أن من أهل الإسلام من سيَعرضون على الناس مفاهيم القرآن بصورة مشوَّهة، وهؤلاء هم مَرَدة الشياطين.. أي أنهم – رغم انتمائهم إلى الإسلام في الظاهر– سيكونون في الواقع من المارقين المتمردين عليه، قصدًا منهم أو خطأً، ولكن الله تعالى سوف يحفظ وحيه من شرورهم أيضًا. وهذا نبأٌ يتعلق بالمستقبل، حيث أخبر الله ﷻ فيه أنه كلما تقاصرت عقول المسلمين عن فهم معارف القرآن، وشوّه بعض منهم المفاهيم القرآنية الأصيلة، سيبعث الله من عنده من يحمي القرآن من شرورهم وفتنهم. فتبارك الله أحسن الخالقين!

وثمة أمر آخر جدير بالذكر وهو أن هذه الآيات قد تنطبق أيضًا على المنجمين وعلى من يطلقون على أنفسهم "الروحانيين" أو "الأرواحيين"، لأن الأنبياء يقضون على أفكار هؤلاء أيضًا؛ ولكن هذا الانطباق انطباق ضمني جزئي. ذلك أنه فيما يتعلق بتأثيرات النجوم أو ما يوجد في علم الهيئة والفلك من حقائق فإن الإسلام لا ينكر ذلك أبدًا، بل لقد أمَرَنا القرآن الكريم نفسه بالتفكر في الكون والتنقيب عن أسراره، لذا فمن المستحيل أن يؤكد القرآن على وجود حِكمٍ في علم الهيئة والفلك ويحثّنا على السعي لمعرفتها من جهة، ومن جهة أخرى يرمي

بالشهب من يتعلم هذه الحِكم والمعارف. إن ما ينهى عنه الإسلام إنما هو الوهم والشرك. فنسبة هذه العلوم إلى الوهم والتخمين غير سليم، أما أن نهتم بها كاهتمامنا بالدين فهذا أيضًا غير صحيح لأن هذا يصبح إشراكًا بالله تعالى. إذ لا شك أن لحركات النجوم تأثيرات يقينية، ولكنها واحد من النواميس الكونية الكثيرة الأخرى. فهناك آلاف الظواهر الطبيعية الأخرى التي تؤثر في الكون باستمرار وفي وقت واحد؛ والحق أنه لا شيء في الوجود يملك التأثير الكامل في ذاته بحيث لا يحتاج إلى سند خارجي إلا الله وحده ﷻ. فمن ظن أن أي شيء مادي – دعك عن النجوم – يملك تأثيرًا ذاتيًّا قطعيًّا يقينيًّا فهو مشرك، ولذلك قال النبي ﷺ: "من قال: مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا فهو كافر" (البخاري: الأذان). والنوء هو النجم. ذلك أنهم قد أضافوا إلى تأثيرات النجوم الحقيقية كثيرًا من الأوهام، ثم إن ما ثبت منها على أسس علمية فهو أيضًا سبب من ملايين الأسباب الأخرى التي خلقها الله تعالى ويحافظ عليها. فالأولى بالإنسان أن يتوكل عليه هو ﷻ.

فالمراد من رجم الشياطين بالشهب – بالنسبة للمنجمين والأرواحيين وغيرهم– هو أن هؤلاء يقومون بدعاوى عريضة في زمن ليس فيه نبي، ولكنهم عند ظهور نبي يتلقون ضربة قاضية، إذ يفضحهم النبي أمام الدنيا بكشف خُدعهم، ويعرف الناس الفرق بين معرفة الغيب الصافي وبين الخرص والتخمين.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

مددناهـــا: مدَّه: بسَطه. مدَّ المديونَ: أَمهَلَه. مدَّ الله عمرَه: أطاله. ومدَّ الشيءَ: جذَبـــه. ومدّ القومَ: صار لهم مددًا وأغاثَهم بنفسه. وفي اللسان: مددت الأرضَ

مدًّا: إذا زدتَ فيها ترابًا أو سمادًا من غيرها، فيكون أعمرَ لها وأكثرَ رَيعًا لزرعها (الأقرب).

موزون: وزَنه وزنًا: رازَ ثقلَه وخفّتَه وامتحنه بما يعادله. وفي "الأساس": وَزَنْتُ الشيءَ ورَزَنْتُه وثَقَلْتُه: إذا رُزْتَه بيدك لتعرف وزنه. ووزَن تمرَ النخلة وزنًا: خرَصه وحزَره (الأقرب). فالشيء الموزون: المقدَّر؛ الذي تم وزنُه؛ المتناسب المتلائم.

التفسير: لقوله تعالى ﴿والأرض مددناها﴾ معنيان: الأول: لقد فرشناها لتتلاءم مع حاجات الناس.. أي وسّعناها كثيرًا بحيث إنها – رغم كونها مستديرة– لا تُعيق عيشَ الإنسان عليها، بل إنه لا يشعُر باستدارتها أصلاً.

والثاني: لقد زوّدناها بالسَّماد. ذلك أن الأرض لا تزال تستمد قدرات جديدة من الأجرام الأخرى، بل لقد أثبتَ علماء الفلك أنه لا تنفك تسقط على الأرض ذرات دقيقة من هذه الأجرام، مما يزيد به حجم الأرض باستمرار، وهذا السماد الخارجي يزيد في طاقاتها زيادة كبيرة.

وإلى جانب السماد، تكون الأرض بحاجة إلى الماء، ولذلك قال الله ﷻ بعده: وجعلنا فيها الجبال الثابتة التي تحتفظ بالثلوج، وهكذا تدّخر هذه الثلوج لأهل الدنيا بذخيرة كبيرة للمياه التي تصل عبر الأنهار إلى مختلف أقطار الأرض وترويها.

ثم قال الله تعالى ﴿وأنبتْنا فيها من كل شيء موزون﴾. والإنبات تعني لغةً إخراجُ النبات من الأرض، وتعني مجازًا تنميةُ الشيء.. حيث ورد في القرآن الكريم عن السيدة مريم عليها السلام ﴿وأنبَتَها نباتًا حسنًا﴾(آل عمران: ٣٨). وقد وردت كلمة الإنبات هنا بالمعنيين: الأول: خلقنا في الأرض كل شيء مناسب لسد حاجات أهلها، أو لا نزال ننمّي ذلك الشيء، والثاني: أننا أخرجنا فيها كلَّ شيء بقدر معين مناسب أو ننمّيه. أي أن الله تعالى عالم الغيب.. يعلم ما الذي

تحـــتاج إليه الأرض وبأي مقدار. فكلمة ﴿موزون﴾ تشير إلى أنه تعالى قد خلق فيها كل شيء مناسب كمًّا ونوعا.

وعلاقة هذه الآية بما قبلها هي أن الله ﷻ قد تحدث من قبل عن نزول القرآن الكـــريم وحمايـــته، ودلّـــل على هذه الحماية غير العادية بضرب مثال ذي صلة بالســـماء. والآن ضرب مثالاً آخر ذا صلة بالأرض وقال: إننا قد زوّدناها أيضًا بوســـائل غـــير عادية تحميها من الضعف وتنمّي قدراتها. وبعض هذه الوسائل خارجية وبعضها داخلية مثل: ١- المواد والذرات التي تسقط عليها من السماء؛ ٢- الجـــبال؛ ٣- قـــدرات الأرض الداخلية. وهذا هو حال الوحي أيضًا، فإنه يتقوى بالمدد السماوي، ويعمل أئمةُ المؤمنين على حمايته، كما أن محاسنه الذاتية تجذب الناس من كل الطبقات إلى معارفه.

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

مَعايِشَ: جمع معيشة، والمعيشة: التي تعيش بها من المطعم والمشرب؛ ما تكون به الحـــياة وما يُعاش به من طعام ونحوه مما يُكسَب أو يعاش فيه من مكان وزمان (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: لقد جعلنا لكم في الأرض أنواع الوسائل التي تعيشون بها، كما جعلنا فيها الرزق حتى لتلك الكائنات التي لا يقدر الناس على تزويدها بالغذاء.

يدّعي الإنسان بفضله على الحيوانات الأخرى، ولكنه يتكبد في كسب رزقه مشقةً وعناءً، بينما تجد هذه الكائنات الحية من حيوانات وحشرات - التي تبلغ الـــبلايين لا الملايين - غذاءها مهيَّئًا ميسَّرًا. وهذا دليل على وجود ذات عليا لا يخفى عليها أي من مخلوقاتها، إذ لا يرزقها الإنسان، وإنما يرزقها الله ﷻ.

وعلاقة هذه الآية بما قبلها هي أنه تعالى ينبّه هنا إلى أن الإنسان في احتياج دائم إلى الغذاء الروحاني أيضًا، لأن الناس في عصر معين لا يستطيعون أن يزوّدوا أهل عصـــر آخر بغذاء روحاني مناسب؛ ولذلك تجدون العلوم الإنسانية تتغير بمرور الزمن. فمن دواعي نزول الوحيِ ذي المعارف الواسعة وحفظِه أنه لو تُرك الأمر في أيـــدي الناس لما اهتموا بالرزق الروحاني للأجيال القادمة أبدًا، بل لأخضعوا وحـــيَ الله للظروف والعلوم السائدة في عصرهم، وبالتالي يظل الذين يأتون من بعدهم حيارى تائهين في الظلمات، لأن العلوم السابقة لا تشفي غليلهم، كما أن الوحي السابق المشوَّه لا يلبي حاجاتهم المتجددة. فكأن الله يقول: كما أننا هيّأنا الرزق للحيوانات التي لا تُطعمونها أو لا تقدرون على إطعامها.. كذلك ادّخرنا في هـــذا الوحي القرآني ما سيهيئ الغذاء الروحاني للأجيال القادمة التي لا يقدر الأولـــون على إمدادها به. عندما تمس حاجتهم إلى هذا الرزق سوف يفتح الله ﷻ لهم هذه الذخائر، ليأخذوا منها نصيبهم.

كـــم هـــي كبيرة منة الله علينا! إذ لو كانت المعارف القرآنية محدودة مختصة بالماضـــي لعانى طلاب الغذاء الروحاني اليوم معاناة شديدة، ولكن الله قد جعل بفضـــله عـــالَمَ الوحي القرآني واسعًا مثل العالم المادي، بل أوسَعَ منه، فلا يزال يزودنا في كل عصر بمعارفه الجديدة.

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

نـــنـــزّل: نزله: صيّره نازلاً. ونزل القومَ: أنزلهم المنازلَ. ونزل الشيءَ: رتّبه. ونزل العِيرَ: قدّر لها المنازلَ. والتنـــزيل يكون تدريجيًّا (الأقرب).

قَـــدَرٍ: القدَر: ما يقدّره الله من القضاء؛ وعرّفه بعضُهم بأنه الإرادة بالأشياء في أوقاتها. والقدَر: مبلغُ الشيء؛ الطاقة (الأقرب).

التفســـير: هذه الآية شرح للآية السابقة، حيث كشفت عن حقيقة كبرى ألا وهـــي أن عند الله خزائن كل شيء، وأنه يوجه انتباه البشر إليها لدى حاجتهم إليها، فينتفعون بها. فكل هذه الكنوز الأرضية التي تُكتَشف اليوم كانت موجودة فـــيها منذ البداية. خذوا مثلاً الحديد، فإنه كان موجودًا في الأرض منذ القِدم، ولكـــن لم يعـــلم الإنسان بوجوده إلا بعد مدة مديدة، وعندما علم به انتفع به بكـــثرة. ولما احتاج الإنسان إلى السير في الأرض راكبًا الحديدَ عثر على الفحم الحجـــري وعلى الطاقة البخارية، فأصبح هذا الجمادُ أي الحديدُ الذي لم يكن به حراكٌ ولا حياة، يجري ويعمل كذوي الحياة. ثم لما زادت حاجات الإنسان أكثر اخـــترع الطاقـــة الكهربائية. وبالاختصار، لا تزال الأرض تلقي بخزائنها في كل زمن وعصر بحسب حاجة البشر إليها.

يقـــول الله تعالى: هكذا تمامًا نحافظ على الوحي ونحتفظ بكنوزه التي ننـــزلها وفـــق حاجات البشر شيئًا فشيئًا. فلا تظنوا أن وحي الله تعالى كتاب فحسب.. أنزله ثم تخلى عنه. كلا، بل إن الوحي عالَم فيه ملايين الكنوز للبشر من مختلف العصـــور، فكـــيف يمكن أن يتخلى الله عن حماية هذه الكنوز ما لم توزَّع كلها عـــلى مستحقّيها أجمعين؟ نعم، حينما ينتهي ما في الوحي من خزائن يتخلى الله عن حماية ذلك الوحي، حيث لا يبقى فيه ما يمكن توزيعه على الناس.

وليكن معلومًا أن الآيات السابقة أيضًا تناولت موضوع حماية القرآن الكريم، بيد أن الخطاب فيها شمل المسلمين أيضًا، وذلك ردًّا على الأخطاء التي كان من الممكن أن يقع فيها المسلمون حول عقيدة حماية القرآن.